الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس - كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرَّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربى من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والڤاندال والقوط، ومنها الآسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتْر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعا لعناصر جنسية شتى. وذكرنا - فيما أسلفنا من حديث - أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا فى الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا فى موطنهم بالأندلس، وإنما فى روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع فى تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من الڤندال والقوط قضت - أو كادت - على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العسف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا فى البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها فى الفصل الماضى وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل - بوضوح - على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل فى مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذى لا تطيب حياة أى شعب بدونها بل إنها تصبح نُكْرا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتب للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدلهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السمح فى معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية فى عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَع عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغيضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جَوْر القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حَيْف، والذى يسوى بين الناس فى مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا فى أن يعتنق كثيرون من مسيحيىِّ الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة فى الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة فى دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهيأ ذلك سريعا فى الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة فى الإسلام وكانوا يسمون المسالمة، وسُمِّي أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث فى تاريخ العرب بالأندلس أن أُكْره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين فى قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك فى وثيقة يُشْهد عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فارٍّ من شىء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرا له نعمته على هدايته له»[١].

وطبيعى أن يُقْبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعَدّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملا: دينا ولغة،

---

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانشية لغةً فى تخاطبه اليومى، غير أنه شعر سريعا بما ذكرناه آنفا من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبى كتراث العربية، وأيضا ليس لها مثلها تراث ثقافى ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلا عما لأهل العربية فى البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائما يحاول أن يحاكى الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيىّ الأندلس ويهودها ثقافيا وأدبيا وحضاريا لا قرنا ولا قرنين بل قرونا متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بتراث الإسلام قائلا: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبارّه وبرشلونه كانوا يقصدون إليها كلما مسّتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»[١]. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشمالية إلى مؤسسات[٢] ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤمّ طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلا عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباسًا عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب - مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف - بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضا بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقرا شديدا، بحيث لا نستطيع أن نجد مبررًا كافيًا لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته[٣] الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

---

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص١٧.

(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.

(٣) راجع هذه النظرية فى بالنثيا ص ١٤٢ وما بعدها.

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانثية ، ويقول: إن هذا الازدواج فى اللغة كان الأصل فى نشوء طراز شعرى مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفى رأينا أن ريبيرا بالغ فى كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذُكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملالة والسآمة[١]. وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك فى الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى فى مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيَّتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: – كما يقول الخشنى – لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار[٢]. وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم[٣]. وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب فى لغة التخاطب لأنها أخبار فرديةٌ، وممكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأمَّيْن أعجميتين، فتلفَّظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا فى حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة فى قضاياهم عن حسن فِقْهٍ بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب فى قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. ومما يدلل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

---

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص٩٦.
(٢) الخشنى ص١١٨.
(٣) الخشنى ص٨٤.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التى دخلت فى الإسلام، وهو شىء طبيعى أن يظل اللقب اللاتينى القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لقّب زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى الشاعر بلقب النَّذْل كما فى المقتبس لابن حيان[١]، وفى التكملة لابن الأبار أنه لقّبه بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أى النذل[٢]، وكأنما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قذر الثياب دائما، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلفاط، وCalafate باللاتينية الدارجة دهّان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لقذارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المروانى شاعر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع يُنْبَز بلقب البَلِّينه[٤] Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب فى قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح فى دلالته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذه دليلا على شيوع اللاتينية الدارجة فى تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن فى أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم فى كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بَلِىّ بالأندلس، إذ قال: «دارهم فى الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (فى القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاطينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»[٥]. ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بلىّ وحدها فى الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب فى لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بلىّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما فى نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

---

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت) ص٩٨ وقابل بالمغرب ١١٣/١.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع فى ذلك تعليق د. مكى فى المقتبس ص٥٠٤

(٣) راجع المغرب ١١١/١.

(٤) المغرب ١٩٧/١.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع فى كتابه معجم البلدان عن أهل شِلْب إذ يقول: «قلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه »[١]. ويقول ابن الخطيب فى الإحاطة[٢] إن أهل غرناطة - فى زمنه بالقرن الثامن الهجرى - ألسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها إعراب كثير . وفى الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ : « مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس » ويقول : « إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة »[٣] . وكأنما ظل يعيش فى الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة ، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب - أو كثيرًا منهم - هناك زايلت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة فى تخاطبهم اليومى ، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب ؟!

ومما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا - من بعض الوجوه - صيحة ألْبَرُو القرطبى المشهورة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م وفيها يأسى لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالنا بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطّع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟! ومَنْ - سِوَى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟! يا للحسرة ! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نَهَم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جَمْع كتبها، ويصرِّحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أُنْسِىَ النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»[٤].

---

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) الإحاطة (الطبعة الأولى) ١ / ١٣٥.

(٣) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦ .

(٤) راجع نص هذه الصيحة فى بالنثيا ص ٤٨٥ وما بعدها .

وألْبَرُو يصرخ - بأعلى صوته - إن شبان النصارى فى الأندلس لزمنه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئين متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالنثيا تلك الصيحة لألْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسٍّ يسمَّى بِنْجِنُسِيسْ، والكتاب مُهْدًى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفترق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالنثيا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمَّون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلَّفها لنا مستعربو طليطلة»[١].

ويشهد لبالنثيا وألْبَرو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عُيِّنوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أنتنيان الذى مرَّ ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان ألبرو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبُّون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرَّبت - فى ظننا - كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشَّاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغريلَّة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولمعاصرهما حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتبا عند بنى هود قبله، وعيِّن

---

(١) انظر بالنثيا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسْداى كاتبا فى دواوينه. وممن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدّود الطبيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة فى دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد فى القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى الذى آثر الإسلام دينا وعقيدة، وكان شاعرا نابها ووشاحا مجيدا. ومما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسائهم شاعرات مجيدات مثل قَسْمونة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها – كما يقول المقَّرى – شاعرا واعتنى بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسما من موشحة، فأتمتها هى بقسم آخر. ومما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم فى ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة فى لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنثيا: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»[١].

ولعل فى ذلك كله ما ينقض – بوضوح – نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن فى ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضا فإنه لايستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان فى الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون فى تخاطبهم اليومى العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى فى الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت فى نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى فى جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها فى الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية فى نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تتراءى فيها أحيانا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية، إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت فى جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود فى ترجمة الثقافة الأندلسية عند بالنثيا ص ٤٨٨ و٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها فى كل بلد عربى بعض خصائص تلك اللغات فى النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث فى الأندلس على نحو ما يتضح فى أزجالها، فهى منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانثية التى كانت مستقرة فى الأندلس قبل الفتح العربى وظلت حية فيما وراءها من الإمارات المسيحية فى الشمال، وبالمثل فى الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجوارى الإسبانيات والمسترقين من الإسبان فى الحروب، وانزلقت منها بعض ألفاظ فى الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أومنظوم باللهجة الرومانثية الدارجة فى الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أويلمون بشىء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة فى الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربى، على نحو ما يلقانا عند أبى عبدالله أحمدبن الحاج المعروف باسم مَدْغَلِّيس، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى، إذ ذكر صفى الدين الحلى فى كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له فى ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وقد سمَّى أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنتان من وزن الرمل، وأخريان من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلَّع البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية[١]. ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربى كما سيتضح - فيما بعد - فى تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب فى ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس فى تخاطبهم اليومى بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى فى ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم أَلْبَرُو آنفًا. والشعب الأندلسى - فى هذا الصنيع - يلتقى

---

(١) راجع كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

بجميع الشعوب الإسلامية فى البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعًا تتمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفى الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها فى ذلك مثل العامة من حولها، وهى لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التى كانت سائدة فى تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطانًا جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدَّلت فى بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة فى حركاتها وانزلقت من كلماتها السوقية والعامية بعضُ ألفاظ إلى كتابات الكتَّاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين فى المشرق يؤلف كتبًا فى لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحّوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائى البغدادى المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألَّف الزبيدى القرطبى الذى مرَّ ذكره بين اللغويين الأندلسيين فى القرن الرابع الهجرى كتابًا فى لحن العوام حتى ينبِّه الكتَّاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحيانًا فى كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبيَّنوه ويجتنبوه[١].

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية فى الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانثية ، كما ظن ريبيرا، وهى عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحيانا النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التى نشأت فى البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدى كتبا، ونظم فيها زجالون أزجالا كثيرة، وأحيانا دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربى أندلسى عامى ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافى وأدبى وعلمى وفلسفى، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا فى الأندلس شعبا عربيا كبيرا ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربىَّ اللغةِ فصيحةً وعاميةً، وظل عربىَّ الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

---

(١) انظر مقدمة كتاب لحن العوام للزبيدى بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (طبع مكتبة دار العروبة بالقاهرة).

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعيا أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدودا زمن الولاة (٩٢ – ١٣٨ هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضى (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار فى تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر فى عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعْونة الكلابى كان مدَّاحا للصُّمَيْل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعارا لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضى. ويظل الرواة ينشدون أشعارًا لأمراء البيت الأموى. وقد أخذ هذا البيت القرشى فى رعاية الشعر منذ أول ولايته فى الأندلس، ويذكرون من الشعراء فى عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المروانى الداخل إلى الأندلس فى صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المروانى وكانت له عند الداخل مكانة عليَّة. واشتهر من الشعراء فى عهد الأمير هشام أبو المخشىّ عاصم بن زيد المتوفى فى دولة ابنه الحكم الربضى، واشتهر لزمن الحكم غِرْبيب بن عبد الله الثقفى الطُّلَيْطلى المتوفىَّ فى أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) وعهده يُعَدّ – كما مر بنا – بدء الازدهار الحضارى والثقافى بالأندلس، وأيضا بدء الازدهار الأدبى، وحظى بنزول زرياب فى قرطبة لأول حكمه، ودَفْعه لنهضة غنائية ومُوسيقية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهوريهم عباس بن ناصح قاضى الحكم الربضى على شذونة والجزيرة، ومرَّ بنا – فيما أسلفنا – أن عبد الرحمن الأوسط وجَّه به إلى العراق فى التماس الكتب القديمة التى تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزا كثيرة أكبَّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم فى إساغة تلك العلوم ثم الإضافة إليها – فيما بعد – إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضا فى هذا العهد يحيى الغزال الذى بدأ ظهوره فى عهد الحكم الربضى وعاش طويلا حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم فى عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشِّمْر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثنى مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلها أبو عثمان سعيد بن الفرج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس فى زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة فى الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار فى المغرب والمقتبس. وممن تدور أسماؤهم من الشعراء فى المقتبس لعهد الأمير محمد طاهرُ بن حزم وتمام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المورورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم فى المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحهما له حتى وفاتهما لعهده، وعِداد ابن عبد ربه فى بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس فى بيوتات المولَّدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبِّب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيديس بن محمود، وكان كاتبا فى القصر وله مدائح كثيرة فى الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه الثائر بجيَّان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله الثائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلفاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح فى الأمير عبد الله وأيضا فى كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا فى الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله فى ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالمة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة إلبيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيهما حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته ويهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى والى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولَّد من أبناء المسالمة هو العبلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا فى عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذى امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حَلْبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوُّا فى تقريظه وتوسعوا فى ذكر عدالته وسماحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيذ[١] مقدَّمهم معلمه فى الصبا ابن عبد ربِّه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادى وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السِّناط وغيرهم من كبار الطارئين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادى ومحمد بن الحسين الطُّبْنى الإفريقى[٢]. ويذكر ابن حيان فى الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهنئونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفى ومحمد بن أضحى صاحب الحامَّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازى الذى مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون فى عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفى مقدمتهم جعفر المصحفى مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطُّبْنى ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجيَّانى صاحب كتاب الحدائق. وكان الحكم مِثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيهم محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور بن أبى عامر ثم ابناه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقْضَى فيها على الحكم الأموى قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء فى الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبليغ سعيد بن عثمان المروانى وهو من مداح المنصور بن أبى عامر، والقائد يَعْلَى بن أحمد بن يَعْلَى وعبد الملك بن إدريس الجزيرى كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهَشَيِّمى وعبد الله بن أبى الحسن

---

(١) الخناذيذ جمع خنذيذ،وهو من الشعراء: المجيد المحسن.

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الاسبانى العربى للثقافة بمدريد) ص٤٠ وما بعدها.

ومحمد بن شخِيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادى المتوفى سنة ٤١٣ ومحمد بن الحسين الطُّبْنى وجعفر بن أبى على القالى، وعيسى بن الحسن، وعُبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتّانى محمد بن الحسن المذحجى المطبِّب وابن دراج القسطلى وأمية[١] بن غالب المورورى.

ومما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجرى، على نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التى تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعَرْض أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكنانى المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموى فى زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرءوف الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء إلبيرة لمطرف بن عيسى الغسانى المتوفى سنة ٣٥٧ وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى أنه ألفه للحكم المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادى وكان ابن داود وزَّع كتابه على مائه باب وأودع فى كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - فى مائتى باب وفى كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبيانا لتفوقهم فى الشعر وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ كتابا فى أخبار شعراء الأندلس، وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السماء كتابا مماثلا، وألف ابن الكتّانى «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألممنا به فى حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية فى الفصل الماضى. وفى سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدَّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعْنَ بجذب الشعراء إليها كما عُنيت إمارة بنى عباد بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

---

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء فى المغرب وخاصة فى كتاب مدينة الزاهرة ١/١٩٧-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم فى الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام فى الذخيرة وابن سعيد فى المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها فى عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح فى وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع فى وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزنى وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلى وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبى الذى اتخذه وزيرا ومدبرًا لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرًا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المِرْعِزَّى النصرانى الإشبيلى. وكاد أن لا ينجم فى بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبى الذى وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صحبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البُشَرات فى إلبيرة ابن القزاز محمد بن عُبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وَهْبون الذى تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذى تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغمات بمراكش. وممن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل فى هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور – من بعض الوجوه – كثرة الشعراء فى عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولنأخذ مثلا المريَّة، فقد كان من أمرائها راعٍ كبير للشعر هو المعتصم بن صُمادح الذى ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعرا، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد فى إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركى يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيرى الذى كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بُلَيطة الطُّليطلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا فى أن تتعدد بالأندلس المراكز التى تُغْدَقُ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفا زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هى التى تنثر الدنانير، أما فى هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل بَزَّتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمريَّة ومُرْسية ودانية وبطليوس وطليطلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة فى هذا العصر هى ظاهرة الشعراء الجوَّالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير فى طلب النوال والمال مثل أسعد بن بُلَيطة الطليطلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبى عامر بن الأصيلى وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبونى المبدع، ورأى أن يرجع أخيرا إلى موطنه «القَبْذاق» ويشتغل فيها بالزراعة بعد أن كلَّت قدماه وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء[١]. وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هى ظاهرة المداحين المتسوِّلين من أهل الكُدْية الذين يسميهم ابن بسام فى الذخيرة باسم القوَّالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائدعلى الأبواب وفى الأسواق يَسْتجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مُقانا:

ألبرقٍ لائحٍ من أَنْدرينْ ذرفتْ عيناك بالدمع المَعِينْ[٢]

ويقول إن طائفة القوالين فى الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة فى اللفظ وسلاسة[٣].

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس فى عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى فى الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم فى الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعى أنْ ظلَّ يعيش فى عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا فى عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء فى هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبى

---

(١) الذخيرة ٢/٧٨٧.

(٢) أندرين: قرية بالشام.

(٣) الذخيرة ٢/٧٩١.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملثمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنّان وابن عائشة الكاتب وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار الأصولى المالقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيلى ويحيى بن بقى واليكّى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضا فإنه ترجم لابن قزمان الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة ٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاما، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من أربعين شاعرا نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والخراز البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن عبد الواحد الملاحى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصافى محمد بن غالب وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينّق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى. وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى الفيلسوف وعلى بن المرينى وابن هرودس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهَب الشاطبىّ. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبيلى والبلارج القرمونى وابن الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرَّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا بزَّت فيه أخواتها فى البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرى فى النفح لأكثر من عشرين شاعرة، منهن فى القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبى المخشىّ عاصم بن زيد، ومنهن فى القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجارية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجانية، ومنهن فى القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفى ومهجة بنت التيَّانى القرطبية ومريم بنت أبى يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتماد المعروفة باسم الرُّمَيْكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صمادح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطى سير بن أبى بكر والى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدى بعض انتقادات على ما تسمع. وممن ترجم لهن المقرى فى القرن السادس نزهون بنت القليعى وحمدة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماء العامرية،وترجم المقرى فى أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى فى نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تمتلىء شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنصول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدى العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكوِّن دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبناؤه وأحفاده يقومون عليها حتى غُلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسَّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يتراءى لهم سريعا، وكان ذلك سببا فى أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التى أثروا بها تأثيرا عميقا فى البلاد المغربية، خاصة فى مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتابٌ نُشِر مجمل له باسم اختصار القِدْح المعلَّى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس فى المائة السابعة ممن جالسهم فى الأندلس وقيَّد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم فى البلدان المغربية وخاصة تونس أو فى البلدان المشرقية فى الإسكندرية أو فى القاهرة أو فى دمشق، وقد بلغوا فى كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجمهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته فى كتاب المغرب، وممن يذكره بينهم أبو الوليد الشَّقُنْدى صاحب الرسالة المشهورة فى فضل الأندلس وتفوقها الثقافى والأدبى، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجيانى ويقول إن أباه ممدوح مدغليس فى أزجاله. ويتوسع فى الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوبين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا، ولذلك عنى بالحديث عمن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيراء وتحفة القادم ومعجم الصدفى وبها توفى سنة ٦٥٨ ومثل أبى المطرف أحمد بن عميرة وأبى الحجاج يوسف البياسى وابن هَمْشك محمد بن يحيى. وممن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلى المطبِّب وقد عيَّنه المصريون فى مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دِحْية الذى أسند إليه السلطان الكامل رياسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذى جعله رئيسا للعشَّابين أو الصيادلة فى القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربى المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفى سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القدح المعلى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس فى المائة السابعة. ونلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاهم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبى حيان المهاجر إلى القاهرة، وذكر فى إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين فى شعراء الأندلس فى المائة الثامنة كتاب نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه فى طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة للسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى الأندلس منذ اكتمل تعربها فى القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حيًّا بل مزدهرا فى الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلما وُجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك فى ذلك علماؤهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلهما مرج الكحل الشاعر البلنسى فقد نشأ ينادى فى الأسواق ويتعيَّش من بيع السمك، وأخذت همته تترقَّى قليلا قليلا فى حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاخ الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالَفُ بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويُظَنُّ أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل

الأول أثر كبير فى نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفقرة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى فى كتاب المسهب فى غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القَبْرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتها»[١]. ويسمى ابن بسام فى ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»[٢] وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم فى نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربى وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربى[٣]، وهو خطأ فى الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما ردده العروضيون المشارقة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التى ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريضَ الشعر العربى تفسح لأوزان مهملة لا تنحصر لم يستخدمها العرب فى أشعارها، واستخدمها فى عصره - كما يقول صاحب الأغانى - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْن العروضى وأتى فيه ببدائع جمة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس[٤] وقد أنشد ياقوت قصيدة له فى مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربى وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - فى رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول».[٥]

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التى أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

---

(١) راجع كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنثيا فى تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور مكى فى كتاب أثر العرب فى النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهملة التى لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - فى رأيه - محمد بن حمود القبرى الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذى يأتى فى الخاتمة. وربما كان ذلك ما دعا «ريبيرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعرى يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانثية فى الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصِّعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفَصٍّ من الجواهر الكريمة. وليس فى يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانثية ، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصحّ منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية فى نهاية الموشحة على سبيل التظرف، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين[١]. وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن فى القرن الخامس وما بعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانثية إلى أغنية رومانثية كانت متداولة فى الأندلس أو تغنَّى، فالقول بذلك إنما هو - فى رأينا - مجرد ظنٍّ لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يجنحون أحيانا فى بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانثية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط فى المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللَّحْن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويُجْعَلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارًا على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولابد فى البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»[٢]. وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

---

(١) انظر فى ذلك فصلا فتحه الجاحظ فى البيان والتبيين (طبعة هرون) ١/١٤١ - ١٤٤ لمن كان يتملّح بإدخال ألفاظ فارسية فى شعره من الأعراب فضلا عمن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا العصر العباسى الأول ص١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص ٣٠.

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب فى استخدام الوشاح الأندلسى أحيانا للخرجات الرومانثية فرارًا من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهوانى من خرجات الموشحات فى كتابه - الزجل الأندلسى - يلاحظ أن كثيرا من الخرجات العجمية التى ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذللة لعاشقها تذللا شديدا، وقد يصاغ ذلك فى خرجات عامية ولكن فى تلميح غالبا دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه فى عبارة لاتينية دارجة أو رومانثية وهذا - فى رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية فى بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغانى الرومانثية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التى ظهرت منذ القرن الثانى الهجرى على لسان أبى نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان فى الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذى يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركزَ أو القفلَ فى الموشحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر فى نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو فى مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان فى الموشحات الأولى شطرا واحدا. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشاكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذى اختاروه لها اشتقاقا من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعا عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور فى المسمط مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أى الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذى يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالَف بينهما ويُعْطَف أحدهما على صاحبه. وهى تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبرى وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامى أو العجمى مركزا أو كما سُمِّى فيما بعد قفلا ويضع عليه أشطارا، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطرا واحدا بالضبط كما كان فى المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهى الأعاريض التى أشار إليها الخليل بن أحمد فى دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية[١] بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول فى الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضى وأبى العتاهية فى بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذى ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادى الكندى المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام فى نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر فى الموشحة من التضمين فى المراكز» يريد أنه أول من أحدث فى الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور فى المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعَه. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجى، الأنصارى المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديدًا هو تضمينه مواقع الوقف فى الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة فى أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التى حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها، وقوَّم ميلها وسِنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أُخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء فى كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعَه فى هذا الغصن متغزلا[٢]

لَيْلِيَّـةُ الـذوائبْ ... ووَجْهُهـا نهارُ[٣]
مَصْقولةُ الترائب ... ورَشْفُهـا عُقارُ[٤]
أَصْداغُها عَقارب ... والخَـد جُلَّنـارُ[٥]

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها فى القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا فى الموشحات بعده. والوزن فى هذا

---

(١) راجع فى ذلك ترجمة الخليل فى كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.
(٢) راجع الموشحة فى الفوات ٤٢٨/١.
(٣) الذوائب = الضفائر.
(٤) العقار = الخمر.
(٥) جلنار: زهر الرمان.

الغصن والأغصان بعده مستفعلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى التى أنشدها ابن شاكر من وزن الرمل أقفالها وغصونها، ومطلعها:

مَنْ وَلِي فى أمةٍ أمرا ولم يعدلِ يُعْزَلِ
إلا لحاظَ الرَّشَأِ الأكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنْظم إما على أعاريض الشعر العربى المستعملة وإما على أعاريضه المهملة، وموشحتاه تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب فى الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ - أقرع، وقد يتألف القفل من جزءين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن. ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا، ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزّاز محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبُّون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان هو والقزاز فرسى رهان فى العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح فى المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله فى موشحة مدح[1] بها المعتمد:

يفترُّ عن لؤلؤٍ فى نَسَقِ من الأقاحِ بنسيمه العَبِقِ
هل من سبيلٍ لرَشْفِ القُبَلِ
هيهاتَ من نَيْل ذاك الأملِ
كم دونه من سُيوف المُقَلِ
سُلَّتْ بِلَحْظِ وَقاحٍ خَجِلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعلن فَعِلن مُسْتعلن. والثانى على زنة: مُتَفْعلاتُ والثالث على زنة: متفاعلن. والرابع على زنة فعلن. واجتماع هذه التفاعيل تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن

(١) انظر الموشحة فى دار الطراز ص ٥٤ وفى المغرب ٢/٤١٤.

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربى مستعمل بكثرة ونقصد وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة فى موشحاته مرارا لعذوبته.

وتتسع موجة الوشاحين فى عصر المرابطين، ومن أهمهم فى عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلى المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِىّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخصه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلى يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفى لبيان مهارته فى صنع المُوشحات ما يروى من أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم فى مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بقى والأعمى التطيلى، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانْ سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ وحَواهُ صَدْرى

مزَّق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون[1] لما فجأهم به التطيلى فى موشحته من عذوبة فى اللفظ وروعة فى التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثانى والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله فى الغصن الأول:

آهِ مما أجِدْ شفَّنى ما أجِدْ
قام بى وقعَدْ باطنٌ متَّئِدْ

وكأن التطيلى تعمَّد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربى مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة فى موشحات التطيلى الملحقة بديوانه كقوله فى موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُثَّ الكئوسَ رَوِيَّهْ على رُواءِ البساتينْ من قهوةٍ بابليَّه
أرقَّ من دَمْع محزونْ
خلعتُ عِزِّى ودينى فى أهيف القَدِّ لَدْنِهْ

---

(١) المغرب ٤٥٦/٢ والمقتطف ص ٢٥٦.

يَسْطو بسيف المنونِ ما جَفْنه غير جفنه
يا قسوةَ الحبِّ لِيني ولو بِرُمَّان غُصَّته

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا عل وزن المجتث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلى من الوشاحين النابهين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره فى الفصل الماضى وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا فى مديح ابن تِيفَلْويت المرابطى الوالى على شرقى الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابنَ تيفلويت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشى ابن باجة فى طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين فى عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو بكر بن رُحَيم ويحيى بن الصيرفى المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناه من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثانى من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة فى الجزء الأول على هذا النمط[١]:

يا ربَّة المنظر الجميلِ ميلى
رأيت فى وجهك السعيد عِيدى

وتظل الموشحات مزدهرة فى عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبدالمؤمن والى غرناطة كما يتضح فى موشح له بديع[٢] مستخرجا الجزء الثانى من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله فى مطلعه:

يا ليلة الوَصْلِ والسُّعودِ بالله عُودِى

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثانى مستفعلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المرينى وفى المغرب له موشحة[٣] بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس فى إحدى موشحاته:

---

(١) المغرب ١٤٧/٢.
(٢) المغرب ٢١٥/٢.
(٣) المغرب ٢١٨/٢.

ورداءُ الأصيـلِ تَطْويه كفُّ الظلامِ

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء[١]؟ وهى صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِى من مُقْلة الفَجْرِ على الصَّباحْ
ومِعْصَمُ النَّهْرِ فى حُلَلٍ خُضْرِ من البِطاح

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا[٢] لعذوبة ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجَّاء، وله موشحة[٣] بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد فى الدفاع عنها فى إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وسننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلى المتوفى سنة ٦٢٧، وله فى إحدى موشحاته[٤]:

وأُفْرِدْتُ بالرَّغْم لا بالرِّضا وبتُّ على جَمرات الغَضَا
أعانقُ بالفكر تلك الطُّلولْ وألثِمُ بالوهم تلك الرسومْ

وأغصان الموشحة وأقفالها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدين إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى فى حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا فى عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلى، وأشهر موشحاته[٥]:

هل دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى قلبَ صَبٍّ حَلَّه عن مَكْنَسِ
فَهْوَ فى حَرٍّ وخَفْقٍ مِثْلَما لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

وقد صاغه أقفالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربى والششترى. ونلتقى فى غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

---

(١) المقتطف ص ٢٦٠.
(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.
(٣) المغرب ٢/٢١٧.
(٤) المغرب ٢/٢٨٩ والغضا: من أشجار نجد. يستوقد بخشبه.
(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلى (طبع بيروت) ص ٢٨٣ ومكنس الظبى: مأواه فى الشجر ليستتر به. القبس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله[١]:

جادك الغيثُ إذا الغَيْثُ هَمَى ... يـا زمانَ الـوَصْلِ بـالأندلسِ
لم يـكـن وَصْـلُك إلا حُـلُمًا ... فى الكَرَى أو خِلْسَةَ المختلس

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقى وابن زهر.

ابن عُبادة[٢] القزَّاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد فى المغرب وقال إنه من حصن بِلّور من إقليم غرناطة وظنّه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبدًا لآل صُمادحٍ ... وفى أرضهم أصلى وعيشى ومَوْلدى
لما كان لى إلا إليهم تـرحُّلٌ ... وفى ظلِّهم أُمْسى وأضْحِى وأغْتدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذُكر اسمه وحُفظ نظمه فى أوزان الموشحات التى كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجة، ورصَّع تاجه، وكلامه نازل فى المديح، أما ألفاظه فى التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه فى حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه فى زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات فى كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلى ويحيى بن بقى من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

---

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢١٣/٢ وهمى: سقط مدرارا.

(٢) انظر فى ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن خاقان: ١٤ و المغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض ٢٥٢/٢ والذخيرة ٨٠١/١ وما بعدها والخريدة (طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

قال: كل الوشاحين عِيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَدْرُتِمٌّ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمّْ
ما أَتَمّْ ما أوضَحَا ما أَوْرَقَا ما أَنَمّ
لا جَرَمْ من لَمَحَا قد عَشِقَا قد حُرِمْ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدّ، رشاقة كأنما تطير بها فى خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة فى انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هى مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء فى كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز فى الجزءين الأولين فاعلن على مستفعلن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداهما من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرَّ بنا فى قفل موشحتين للتطيلى وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجرى على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن «ريبيرا» ومن تبعه خطأ بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التى نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع فى دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدِّما ومؤخرا فى أسبابها وأوتادها ومستخدما إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث فى التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهملة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا فى نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبرى الوشاح الأول أثبتها مفصلة فى كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التى أنشدناها والتى أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية فى وصف عَرْضٍ لأسطول المعتصم فى البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التى رأيناها فى الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول فى أحد الأغصان:

وجـاريـاتٍ تـجـولْ مثـلَ الجياد السـابقه
إنشاءُ مَنْ فى المُحولْ يُنْشِى السحابَ الوَادِقه[1]

(١) المحول: الجدب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سمتْ على النجم طولْ منهـا فروعٌ بـاسِقَه[١]

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافاته. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسياب بين مديح المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد ، وفى أحد أقفالها يقول فيهما :

بَحْرا نِعَمْ لمن وَرَدْ ظَمْآنْ سيفا نِقمْ لمن مَرَدْ [٢] أوخانْ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى[٣] بن بقى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبى القيسى المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح فى القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيُّه طائعَه، إذا نظم أَزْرَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقْم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلُّب دهرٍ كواهى الجُمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطىَ غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَغَلْتُ فى المغرب الأقصى فأعجزنى نَيْلُ الرغائبِ حتى أَبْتُ بالنَّدمِ

ولم يلبث أن فُتح له باب كبير هو باب بنى عَشْرة قضاة سَلا بالقرب من الرباط

---

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتدّ من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر فى يحيى بن بقى القلائد ٢٧٩ والذخيرة ٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم ٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢ والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها ومعجم السلفى ٥٠ والخريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفح الطيب فى الجزءين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة فى المغرب وثانية فى معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة فى الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخاه أحمد قاضى سَلا، فمكث فى رحابهما طويلا، وأضفى عليهما من شعره وموشحاته دُرَرا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التى مدح بها القاضى أحمد، والتى قال فى خرجتها أو خاتمتها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمدْ فى مَجْده العالى لا يلحقُ
أطلعه المغربْ فأرِنَا مِثْلَهُ يا مَشْرِقُ

وهو لم يحسده فى رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره فى الفقرة الثانية إذ جعل القاضى أحمد كوكبا يبزغ فى المغرب ولا مثيل له فى المشرق. ويتضح إبداعه فى تصويره إذ يقول فى أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبته:

عطا بليتَيْهِ ومرَّ كالظَّبْىِ لِبِيدِهْ[1]
فدلَّ عليه تكسُّر الحَلْىِ بِجِيدهْ
تفتيرُ عَيْنَيْهِ يُسْرِع فى بَرْىِ عَمِيده

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق فى الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرَّتْ سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الظباء بل هى من النساء إذ سمع صوت الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع فى ضَنَا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردَّها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقى لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» والمقرى فى أزهار الرياض ومع ذلك نجدها فى ديوان التطيلى خطأ[2] كما نجد أختا لها فى ديوانه أيضا وهى فى مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقى الذى تفيَّأ ظلاله،

---

(١) الليث: صفحة الجيد وجعلها تعطو بها وتمدها، كناية عن طولها.

(٢) انظر ديوان التطيلى ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص ٧٩ وأزهار الرياض ٢٠٩/٢.

وينص ابن سناء الملك فى مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه[١] وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرُ شِيمةُ العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذِّبى كفانى
لما جَنَى الوَرْدُ مِلْءَ كفَّيْهِ تشوَّفَتْ وردتان إليه
فحلَّتا فى رياض خَدَّيْهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبى كفانى» لأن وزنه مستفعلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد فى خدود صاحبته تنقلنا إلى عالم شعرى حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

ياوَيْحَ صَبٍّ إلى البَرْقِ له نَظَرُ وفى البكاءِ مع الوُرْقِ له وَطَرُ

من وزن البسيط أقفالا وأغصانا، وهو يضم فى الوزن الجزءين الأولين والتاليين بعضهما إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن فى أقفالها وأغصانها مستفعلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة فى كثير من أغصان ابن بقى وخرجاته كقوله فى موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلْ ولا مُعينْ يا قلبَ بعضِ الناسْ أما تَلينْ

وقوله فى خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

---

(١) راجع ديوان التطيلى ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد فى المغرب ٢٥/٢ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقى وقد أضيفت الى التطيلى فى ديوانه ص٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقى اختلطت بموشحات التطيلى وخاصة فى كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ فى نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيلى وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!

سافَرْ حبيبى سَحَرْ وما وَدَّعْتُو يـا وَحْـشَ قلـبى فى الليل إذا افتكرتُو

وكلمة وحش حذفت منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتن. وبهذه الألفاظ الغزلة المفرطة فى السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقى من صور بديعة طارت شهرته فى عصره وبعد عصره، وقد لبَّى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر[١] بن زُهْر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية ألمعنا بها بين الأطباء فى الفصل الماضى، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة فى عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخارى أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدَّث بمقامات الحريرى عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وتوفى فى آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضة الأمراء فى مراكش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار فى المغرب والمشرق موشحه:

أيُّها السَّاقى إليك المُشْتكَى قد دَعَوْناكَ وإن لم تَسْمَعِ
ونـديمٍ هِمْتُ فى غُـرَّتـهِ
وسقـانى الرَّاحَ من راحَتـهِ
كلما استيقظ من سَكْـرتـهِ
جذَب الزِّقَّ إليه واتَّكَى وسَقـانى أربعًا فى أربـعِ

---

(١) انظر فى أبى بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ٢٧١/١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ٢٥٦/١٨ وزاد المسافر لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوافى للصفدى ٢٩/٤ وراجع فى موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبى أصيبعة وتوشيع التوشيح للصفدى (انظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيح لابن الخطيب.

والموشحة من وزن الرمل، وهى تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذا بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحةٍ هذا الغصنُ وقفله:

هـل تستعادْ أيـامُنـا بـالخليـجْ أو لـيـالينـا
إذ يُسْتـفـادْ من النسيم الأريج مِسْكُ دارينا[1]
وإذ يـكـادْ حُسْنُ المكان البَهيج أن يحيِّيـنـا
نهرٌ أظلَّهْ دَوْحٌ عليه أنيق مـورقٌ فينانْ[2]
والماء يجرى وعَـائمٌ وغريقْ من جَنَا الرَّيْحانْ

والغصن والقفل جميعا يزخران بشجىً يثير فى القلب حنينا بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهم بالتحيات والبسمات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظلله، والرياحين والزهر بين سابحٍ وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو مولَّه مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتُزع منه انتزاعا. وزنة الجزء الأول فى القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثانى مستفعلن فاعلانْ، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلانِ وفى الغصن فَعْلن، وبذلك يُرَدّ وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائما وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات فى تفاعيل هذه الموشحة وما ماثلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحيانا على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مرارا لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قَلْبِى من الحبِّ غير صاحِ صاح
وإن لَحانى عـلى المِـلاح لَاحِ
وإن دَرَى قِصَّتـى وشـانـى شـانـى

والجزء الأول فى الغصن والقفل من مخلع البسيط، والجزء الثانى على زنة فعلن تفعيلة

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربى ينسب إليها المسك والطيب.
(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم، وشانى الأولى: مخففة من شأنى والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريفة كقوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:

طرقتْ والليل ممدودُ الجَناحْ مرحبًا بالشمسِ من غير صباحْ

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبته فأضاءت فى هذا الليل كأنها شمس تطلع دون صباح مما يلقى فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دِحْية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظلامَ الشعورْ على أَوْجهٍ كالبدورْ
سفَرْن فلاح الصَّباحْ
ضحكنَ ابتسامَ الأَقاحْ
كأن الذى فى النُّحورْ تَخَيَّرْن منه الثُّغورْ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحبه ظلام الشعور وبدور أو أقمار الوجوه ويضيف أنهن سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور لنصاعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود اللآلئ التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تخيَّرْن ثغورهن من تلك اللآلئ البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقى وابن عبادة القزاز وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شىء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرشق الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصَّروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان، حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وَفْرَة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يَمٌّ من الأنغام تغرق الأذن فى خِضَمِّه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وُضعت فى نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانثية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربى المهملة التى حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فنظروا فى دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك فى موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب فى بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك فى الموشحة، بحيث تدخل بدقة فى أعاريض الشعر العربى وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربى وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل[١]، وهو فى اللغة التطريب، وقد سمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة. وفى اسمه الذى اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك فى بعض أزجاله[٢]، ونلتقى بعده بابن عبد الرءوف ورسالته فى الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغى أن يمنع الذين يمشون فى الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز[٣]. وحين رأى المستشرق الإسبانى «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف فى شىء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنها بها فى نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعرى شعبى تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذا صورتين هما

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى (نشر معهد الدراسات العربية العالية فى الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ فى ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرءوف فى ثلاث رسائل نشر بروفنسال.

الموشحة الفصيحة والزجل السوقى الدارج[١]، ويبسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدَّم براهين جلية على وجود لغة رومانثية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن فى قرطبة»[٢]. والشعبتان جميعا كما يراهما ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقينى، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانثية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانثية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فُتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبُّوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب[٣]. ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول مَنْ بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخَّص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانثية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا دَرْسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يَبْن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانثية ، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانثية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استُحْدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما يمنعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

---

(١) انظر بالنثيا ص ١٤٢. ص ١٨٦.

(٢) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى (٣) المقتطف ص ٢٦٣.

المتوفى فى منتصف القرن السادس يحدثنا فى مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا فى زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهى أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصح بالألفاظ العربية الجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساسا للزجل أخطل بن نماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائيا قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن نمارة تفاصحه ببعض الألفاظ التى لا تجرى فى العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه[١]». ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»[٢].

ومعنى ذلك أن تصور «ريبيرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكرًا مع الموشحة وأنه نُظم بلغة رومانثية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانثية ، ونُظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت فى عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخص ابن قزمان بكلمة. وينبغى أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجمالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربى، وكان كثير منه يُنْشد فى الحث على جهاد النصارى وفى المناسبات الدينية. وأكبر زجَّال فى الجيل التالى لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مَدْغَلِّيس[٣]، وهو من أهل المريَّة، وله أزجال كثيرة فى مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرى فى نفح

---

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ص ١٣٥٠.

(٣) انظر فى مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتعليقنا على ترجمته فى الهامش.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ومدغليس بمنزلة أبى تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديبًا معربًا لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنهما كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب اقتصر عليه»[١] وكان ديوانه يُرْوَى فى المشرق وحصل صفى الدين الحلى على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسى وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وذكر له قطعًا من أزجاله وأروعها الزجل الذى أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:[٢]

ثـلاث آشيـا فِـالبسـاتـيـنْ ... لَسْ تُجَدْ فى كلِّ موضعْ
النَّسيم والخُضْـرَهْ والـطِّيرْ ... شِـمْ واتْـنَـزَّهْ وإسْـمَـع
ورَذاذًا دقّ يـنْـزِلْ ... وشعاعِ الشمس يِضْرَبْ
فترى الواحدْ يِفضّض ... وترى الآخرْ يِـذَهَّبْ
والنباتْ يِشرْب ويِسْكَرْ ... والغصونْ تُرْقُصْ وتِطْرَبْ

ويشيد فى نهاية الزجل بغناء أم الحُسْن. والزجل مفعم بالسلاسة والعذوبة والتصاوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحّد القوافى بين الأجزاء الأولى المتقابلة فى قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها فى الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان فى بعض أزجاله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته فى اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه فى انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد بالعامية التى أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياسًا على الموشحة صاغ القصائد العامية قياسًا على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مرَّ بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن على بن محمد الشاطبى، وقد أنشد له صاحب العاطل الحالى قطعةً من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفًا حال العدو[٣]:

---

(١) النفح ٣٨٥/٣.
(٢) المغرب ٢٢٠/٢.
(٣) انظر العاطل الحالى ص ٣٤ و٨٠.

كلما رَا السيوفْ إليه تَنْجرِدْ صاح ويشكو وثَمَّ لم يَرْتَفِدْ[١]
يَنْبَحِ الكلبُ إذ يَرَى الأسَدْ والأَسَدْ لَسْ يَهُزُّو ذاك النُّباحْ

ورَجاعتْ عليه جنودْ ووبالْ ومال النَّحْس ماعو كَفْ مامالْ
لم تنجيِّه وصيَّةُ الكردِنالْ ولَ فادِتْ نصيحةُ النُّصَّاحْ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد فى المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقى، ومنهم زجَّالو إشبيليه: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خاطب وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن[٢] ناجية اللورقى. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالى القرن السابع أمثال البُلَّارج القرمونى ويحيى بن عبد الله بن البحبضة. وترجم لابن الدباغ[٣] المذكور آنفًا وقال إنه لقيه بمالقة وإنه إمام فى الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششترى المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاطل من زجل قوله[٤]:

يـا حَبِيبْ قلبى تعـطَّفْ بعض هـذا الهجر يِكْفـا
فـدموعْ عَيْنىَ مـا تَرْقَـا ولهيبْ قلبىَ مـا يِـطْفَـا

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس فى المغرب ونظم لهم نوعًا من الشعر الملحون فى أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض[٥] البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين فى عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام فى الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادى آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلًا لمدغليس استهله بقوله:

حلَّ المجونْ يا أهل الشطارا مذ حلَّتِ الشمس بالحَمَلْ

وجدير بنا أن نقف قليلًا عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى ونتحدث عن بعض أزجاله.

---

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بمدد من قومه.
(٢) انظر فى هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.
(٣) المغرب ٤٣٨/١.
(٤) العاطل الحالى ص ٥٦.
(٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

ابن قزمان[١]

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش فى عصر المرابطين إلى أن توفى بعده سنة ٥٥٥ للهجرة فى صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفى المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه فى قرطبة نشأة علمية أدبية، وهى نشأة أهلته ليكون أديبًا وكاتب وثائق كما يكون شاعرًا ووشاحًا[٢]، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات فى كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة فى مديح يحيى بن غانية والى غربى الأندلس من قِبَل على بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص فى مجلس شراب، فأطفأ فيه السراج بأكمامه. ولعل فى ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكرًا للمتاع بالخمر واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاطل الحالى موشحة غزلية غزلًا ماديًّا صريحًا[٣]. وفى المُغْربِ أنه «كان فى أول شأنه مشتغلًا بالنظم المعرب (شعرًا وتوشيحًا) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته فى الزجل لا بقرطبة وحدها، بل فى كل مدن الأندلس، وأيضًا فى المغرب والمشرق، حتى لتحتفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نسَّاخ بمدينة صفد فى فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤ م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصوَّرة فى لوحات، وعُنى فى سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكى «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ فى رأينا خطأ كبيرًا حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربى القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسبانى بحجة أن الزجل نُظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهى حجة لا دليل

---

(١) انظر فى ابن قزمان المغرب ١/١٠٠ و١٦٧ وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار فى مجلة المشرق عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة ٢/٤٩٤ والعاطل الحالى لصفى الدين الحلى (انظر الفهرس) والوافى للصفدى ٤/٣٠٠.

(٢) راجع الزجل السابع فى الديوان.

(٣) العاطل الحالى ص ٨٢.

عليها أى دليل، بل كل شىء ينقضها نقضًا فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهى لذلك تلتقى بها فى أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا فى تحليلنا العروضى لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك فى الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربى ودوائر الخليل التى أثبتها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وتأنَّى فى قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعًا لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها فى صفد قديمًا أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفى الدين الحلى أن يدرسها فى كتابه العاطل الحالى، وهى على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونُفس صفى الدين يشهد فى كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب[١]. ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربى؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم - مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين. والديوان - بدون ريب - كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غُنْية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين فى الأندلس غير مدافع، ويتراءى لنا فيه ابن قزمان ماجنًا عاكفًا على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مرارا مجاهرًا به فى غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحيانًا إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضى يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطى محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعى لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المسرفة فى المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله فى أزجاله مداحًا كبيرًا للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدى العطاء فى إلحاح. وهو يهبط فى هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذى يسكنه مصورًا فى تضاعيف ذلك بؤسه وحرمانه وماهو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه فى اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحينا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجَّال الفنان الكبير الذى أعطى للزجل صورته العامية

---

(١) العاطل الحالى ص ٢٢ ويؤكد صفى الدين ذلك قائلًا إنهم خالفوا أحيانًا بين الأوزان فى الأقفال والأغصان من غير أن يُخْسروا فى الميزان.

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقته من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ فى الديوان:

لانْسيتِ إذْ زارني حِبِّى وانجلى همى وزاد كَرْبى قلتُ لُهْ وَقْتَا أخذْ قلبى
قالْ متى تْجينِ قُلْ غدا وغدا للناظرين قريبْ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف فى جزئى القفل. والجزء الثانى فى الغصن: «وانجلى همى وزاد كربى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه زاد كربه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفَّه العشق. ويقتطف صفى الدين الحلى هذا المطلع من أحد أزجاله[1]:

قالوا عنِّى بأنِّى فيكْ عاشقْ إيشْ تَـقُـلْ يَـصْـدُقـوا
يا حبيبى لْقيتْ كثيرْ فى الناسْ بـالـصـوابْ يَـنْـطِقـوا
هذا شىْ والنَّبِىْ يا نورْ عينى مـا تحَدَّثـت بِـيـه
ولَ بـالله خـطَرْ عـلى بـالى لا ولا خُـضْـتُ فِـيـه

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستفعلن فَعْلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتتخللها أحيانا قطع أو فقر بديعة فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الـرَّبيـع ينشُـرَ عْـلامُ مثـل سلطانـاً مؤيَّـدْ
والثمـارْ تنثـر حليَّـه بثيـابْ بِحَـلْ زَبَـرْجَـدْ
والرياضْ تلبسْ غِـلالا من نبات فِحَلْ زمـرُّدْ
والـبَهـارْ مـع الـبنـفسَـجْ يـا جمـال ابيَضْ فى أزْرَقْ

واستمر يذكر الندى يترقرق على الغصون وأزهار الخيرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانثية فإنها جاءته من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تُخْرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانثية كما ظنَّ «ريبيرا»

(١) العاطل الحالى ص ٣٤

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة فى أزجاله صياغة عامية عربية هى عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية الجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.[١] ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها فى كتاب العاطل الحالى، إذ لم يتصدَّ أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا فى الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنثيا حديثا مفصلا عن مدى تأثيره فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنثيا فى الحديث عن تأثير الزجل فى الأغانى الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها فى قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر فى القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سماه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعمائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثمائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا فى القرن الرابع عشر الميلادى الذى سماه: «الحب الطيب» ويقول بالنثيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

---

(١) انظر العاطل الحالى ص ٦٤ وما بعدها

٣

شعراء المديح

طبيعى أن يأخذ شعراء المديح فى الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون فى التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ.) كما مرَّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش فى عصره من الشعراء يديج القصائد فى مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس[١] بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه فى التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله فى تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة فى نبارَّة بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول[٢]:

إنَّ القُفولَ الذى أوْفَى بعيدينِ ... مكرَّمين على الدنيا عَزِيزَيْنِ
قُدومُ أكرمِ مَنْ فى الأرض قاطبةً ... قُدومُ فِطْرٍ فكانا خيرَ عيدين
طابا كتُفَّاحَتَىْ خَدَّىْ مُنَعَّمةٍ ... تورَّدا فى بياضٍ بين صُدْغَيْن[٣]
أو مُقْلَتَىْ رَشَإٍ فى طَرْفِهِ حَوَرٌ ... مَكْحُولتين بِسِحْرِ البابليَّيْنِ[٤]

ونلتقى بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفى مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد[٥]الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف فى المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان فى قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لُك:

---

(١) انظر فى عباس بن فرناس المقتبس لأبى حيان (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدى ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية الملتمس رقم ١٠٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة فى المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

(٤) البابليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر فى ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضبى رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان فى الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن فى مسجده وهو وزير.

قد جاءك الفَتْحُ فى العِيد الكبير فما رأيتُ مثلهما فى اليوم عِيدَيْنِ
يافَرْحةً مَنْ رأى فى الغَزْو طالعها وشاهدَ الفتح لم يأسف على البَيْنِ
ألذَّ فى السمع من بُشْرَى الحَمِيمِ إذا وَافَى ومنْ منظر المعشوق فى العَيْن

وممدَّح البيت الأموى الجدير بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذى أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة فى أوربا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التى تفككت فى عهد جده عبد الله، ودان حكام نبارَّة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومرَّ بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء فى زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعا بها وفى مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول فى مدحة ميمية:[١]

يَهْنا الخلافة سَعْيُ خيرِ إمام لله مَسْعاهُ ولِلإسلامِ
ليُعزَّ دينَ الله فى كَنَفِ العُلا ويذبَّ عن حَرم الهدى ويُحامى
مستنجزًا وعد الإلـه بِنَصْرِه فى شِيعة الإشراك والإجرامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال فى شهر رمضان وأدركه عيد الفطر فى بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد – كما يقول ابن حيان – للقاء العدو ومزَّق جموعه تمزيقا. ولابن إدريس يذكر زيادته فى جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها[٢]:

سَيَشْهَدُ ما شيَّدتَ أنك لم تكن مُضِيعًا وقد مكَّنْتَ للدين والدُّنْيا
فبِالجامعِ المعمورِ للعلم والتُّقَى وبالزَّهرة الزَّهْراء للمُلْك والعَلْيا

وقد استحال جامع قرطبة فى عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس فى مدائحهم لأمراء البيت الأموى الدين الحنيف شعارا لهم فى غزواتهم للمسيحيين فى الشمال، فهم يحامون ويصولون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلْفى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب فى الأندلس، بل فى جميع العالم العربى، لعصره، غير أنه لم يكن داهية فى السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية فى تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويمده بالسلاح

---

(١) المقتبس الجزء الخامس ص ٤٢.
(٢) المغرب ١/١٨٠.

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمى، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبى العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه فى تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده فى الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية فى حروبه مع نصارى الإسبان. وفى هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن على أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن مَعَدّ الفاطمى ودعوته وولاءهما له، وهلّل شعراؤه بوفادتهما طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص[١]:

بِأَيْمنِ إقبالٍ وإسْعادِ طائرٍ ... تباشيرُ محتومٍ من الأمر واقعِ
توافتْ بمُلْكٍ من معدٍّ مقوَّضٍ ... لمُلْكٍ إلى مهدىٍّ مروانَ راجعِ
فيالكِ من بُشْرَى سرورٍ تَضَمَّنَتْ ... بلوغَ الأمانى عن سُعود الطوالعِ
فجعفرُ يُغْنِى عن جنودٍ برأْيِهِ ... ويَحْيَى يلاقى حاسرًا ألفَ دارعِ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمى تقوض من أساسه للملك المروانى: الحكم، ويصفه بأنه مهدى منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنى وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبى عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابناه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى فى الشمال حتى بلغت - فيما يقال - نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة فى صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد[٢]:

اليوم عاشَ الدِّينُ وابتدأ الهُدَى ... غَضًّا وعاد الملكُ عذبَ المورِدِ
من فاته بدرٌ وأدرك عُمْرُه ... جَرْبيرَ فَهْو من الرَّعيلِ الأسعدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التى أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

---

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر فى ترجمة ابن شخيص الحميدى فى الجذوة ص ٨٤ وبغية الملتمس ص ١١٩ واليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طبع دار الفكر) ٢٢/٢ وقال الضبى فى البغية: له على لسان رجل يعرف بأبى الغوث أشعار مشهورة فى أنواع الهزل.

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢ - ٧٣ وهو صاعد البغدادى اللغوى الشاعر الوافد على المنصور بن أبى عامر، وراجع ترجمته فى الذخيرة ٨/١/٤ وما بعدها والحميدى: ٢٣٣ والبغية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ٢٨١/١١ وإنباه الرواة ٨٥/٢ والمعجب للمراكشى ص ٧٥ وابن خلكان ٤٨٨/٢.

مبالغة فى تمجيده لانتصار ابن أبى عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درَّاج القسطلى وسنخصه بكلمة. ويقول فيه وفى حجابته عبادة بن ماء السماء[١]:

لنا حاجبٌ حاز المعالى بأسْرها ... فأصبحَ فى أخلاقه واحدَ الخَلْقِ
فلا يغترزْ منه الجَهُولُ بِبِشْره ... فمعظمُ هولِ الرَّعْدِ فى أثَر البَرْقِ

وعاصر عبادةُ زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد الخلافة على بن حمود العلوى من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه متحزبا له متشيعا بمثل قوله[٢]:

أطاعتك القلوبُ ومَنْ عَصِيُّ ... وحِزْبُ الله حزبُك يا علىُّ
وإن قال الفَخورُ أبى فلانٌ ... فَحَسْبُكَ أن تقول أبى النبىّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود بجنود من البربر إلى قرطبة ويستردّ الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فهـا أنا ذا يـابنَ النبوَّة نـافثٌ ... من القول أَرْيًا غير ماينْفُثُ الصِّلُّ[٣]
وعندى صريحٌ فى ولائك مُعْـرقٌ ... تشيُّعــه محضٌ وَبَيْعَـتُـهُ بَتْـلُ[٤]

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضى فيذكر أن جده كان مواليا لعلى مما جعل معاوية يبغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحناط الكفيف القرطبى يتشيع مثله للحموديين وله مدائح متعددة فيهم وخاصة فى على بن حمود وفيه يقول:[٥]

إمامٌ أقام الدِّينَ حَدُّ حسامِه ... طريرًا ومنه فى يد الله قائمُ[٦]

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين فى الأندلس، إذ لم يكونوا

---

(١) راجع ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٧٥/١ وسنخصه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.
(٢) انظر فى هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.
(٣) الأرى: عسل النحل. الصل: الحية.
(٤) بتل: حق.
(٥) انظر القصيدة فى ترجمة ابن الحناط بالذخيرة ٤٣٧/١ وراجع ترجمته فى الجذوة ص ٥٣ والبغية رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١ والتكملة رقم ٤٢٩ والوافى ١٢٤/٣.
(٦) طريرا: له رُواء وبهجة.

هم ولا آباؤهم الأدارسة فى المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا فى عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبَّج فيه المدائح، إذ تكاثر الحَبُّ فى تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحالت قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث فى الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة فى هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحةُ أبى زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأشبونى لإدريس بن يحيى الحمودى أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلا وخمرًا وسنعرض لذلك فى ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشدًا[١]:

وكأنَّ الشمسَ لما أشرقتْ ... فانْثَنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريسَ بن يحيى بن علىٍّ ... بن حَمُّودٍ أمير المؤمنين
كتب الجودُ على أبوابهِ ... ادْخُلُوها بسلام آمنينْ
انظرونا نَقْتَبِسْ من نوركم ... إنَّه من نورِ ربِّ العالمينْ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك فى مؤامرة ضدهم وزجُّوا به فى غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله[٢]:

بنى جَهْورٍ أحرقتُم بجفائكم ... جَنانى فما بالُ المدائح تعبَقُ
تظنوننى كالعَنْبَرِ الوَرْد إنما ... تطيبُ لكم أنفاسُه وهْو يُحْرَقُ

ورُدَّت إليه حريته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذه وزيرا له وأجزل له فى الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون فى إحدى مدائحه[٣]:

---

(١) انظر القصيدة فى ترجمة ابن مقانا بالذخيرة (تحقيق محمد سيد كيلانى) ص ٦٠ والمغرب ٦٩/١. ٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد

(٣) الديوان ص ١١٢.

همامٌ يَزين الدهرَ منه وأهلَه ... مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفُ
يتيهُ بِمَرْقاهُ سريرٌ ومنْبَرٌ ... ويحمد مَسْعاه حسامٌ ومُصْحَفُ
جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقودُه ... وجَنَّة عَدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ[١]

ومرَّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بما قدموه لهما من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له فى الفصل التالى، ومن قصيدة له فى مديح المعتمد[٢]:

ملكٌ إذا عقد المغافرَ للوَغَى ... حَلَّ الملوكُ معاقدَ التيجانِ[٣]
وإذا غدتْ راياتُه منشورةً ... فالخافقانِ لهنَّ فى خَفَقانِ[٤]
يامنشئَ العَلْياءِ بعد مماتِها ... تَفْنى النجومُ وما ثناؤك فانِ
الأرضُ حاجتُها إليكِ بِطَبْعها ... كالعَيْنِ حاجتُها إلى الإنسانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية فى عهد أميرها المعتصم بن معن بن صُمادح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعرا، فهتفت باسمه الشعراء فى إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولمواطنه أبى حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله[٥]:

وأحسنُ من روضٍ تحلَّىٰ بنَوْرِهِ ... مُحَيَّا ابن مَعْنٍ فى حُلِيِّ الفضائلِ
جوادٌ كأن الأرض جمعاءَ راحةٌ ... له وبحورَ الأرض خمسُ أنامِلِ
جَلَلْتَ فجلَّ القولُ فيك وإنما ... يُقَدُّ لقَدْرِ السيف قدرُ الحمائلِ

وشاعر المعتصم المبدع ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتصم والمعتمد جودا وشعرا ولَسَنًا وفصاحة المتوكلُ بن المظفر بن الأفطس أمير بَطَلْيَوْس، ولأبيه كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس فى عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتُتْلَى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

---

(١) تزلف: تقدَّم وتصبح زلفى ومنزلة
(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣
(٣) المغافر: جمع مِغْفرة: زرد من الدروع على قدر الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغى: الحرب
(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة نبضات القلب.
(٥) انظر فى الأبيات ترجمة أبى حفص بن الشهيد فى الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره فى الحميدى ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية الملتمس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية فى زمانه وكان مقتصرا على أمير بلده المعتصم بن صمادح.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة فى الفصل التالى، وفيه يقول[١]:

طبَّقْتُ آفاق الكلامِ فلم أدَعْ زَهَـرًا يرفُّ ولا جُمـانًـا يُنْظَمُ
لله دَرُّكَ هـل لمجـدك غـايـةٌ إلا وأنت بهـا معنًى مُغْـرَمُ
هـزَّتْك أرْوَاحُ السمـاحة بـانَـةً ومن الرَّجاحة فى حِماك يَلَمْلَمُ
وتعلَّمتْ منـك الغمـامـةُ شيمـةً تَهْمِى وفيهـا للبـروق تبسُّـم

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التى يشبه بها الشعراء محبوباتهم فى الحسن سماحة وجودا، ومثل جبل يلملم فى رجاحة العقل وحلمه ورزانته، والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يغدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها ماتنى تلمع كبسماته التى ترتسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة فى أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا فى الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمراء عاشوا للترف واللهو، وإن سدَّدوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم فى الإمارات وإخوانهم فى الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين فى الشمال، وسقطت طليطلة فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفكَّكين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفى مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين فى المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية فى غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس فى الزلاقة بالقرب من بطليوس فى اليوم الثانى من رجب سنة ٤٧٩ وصدَق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - فى وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقا ذريعا، وكأنما استؤصل جيشهم استئصالا، إذ لم ينج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولا مقهورا، وفرَّ على وجهه ألفونس يتسنَّم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنأ الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح فى تهنئة له[٢]:

---

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت فى الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن القزاز.

ثناؤك ليس تَسْبقه الرِّياحُ يطيرُ ومن نَدَاك له جَناحُ
تطيبُ بذكرك الأفواهُ حتى كأن رُضَابَها مِسْكٌ ورَاحُ[١]
جلبتَ إلى الأعادى أُسْدَ غابٍ بَرَاثِنُها الأسنَّةُ والصِّفاح[٢]

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب فى حمير وكان بنو عباد من قبيلة لخم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون فى قصيدة يهنئ فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشدا[٣]:

نُمِى فى حِمْيَرٍ ونَمتْك لَخْمٌ وتلك وشائجٌ فيها التحامُ
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منه كيامِنَ، لا وَهَى لكما نظام
فإنْ يَنْجُ اللَّعينُ فلا كَحُرٍّ ولكنْ مثلما ينجو اللئامُ
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا كأن وِهادها منهم إكامُ

وهو يجعل يوسف نفس سميه الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكمات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة[٤] للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولُقِّب بعد تلك الموقعة المظفَّرة بأمير المسلمين،وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية فى موضع يسمى لبيط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجّه قواته إلى حصن لبيط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار فى الخلافات وفى الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل – إلى غير رجعة – حكم هؤلاء الأمراء الذين يُخْربون بيوتهم وبيوت المسلمين فى الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق فى رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبى بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بُلقِّين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد فى إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلَّل

---

(١) الرضاب: الريق المرشوف. راح: خمر
(٢) البراثن: جمع برثن: مخلب السبع. الصفاح: السيوف.
(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى.
(٤) انظر فى هذه التهنئة الذخيرة ٨١٤/٣.

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجد فى مدحة لابن تاشفين متشفيا فيهم قائلا[١]:

ناموا وأَسْرَى لهم تحت الدُّجَى قدرٌ ... هوى بأنجمهم خَسْفًا وما شعروا
وكيف يشعرُ مَنْ فى كفِّه قَدَحٌ ... تحدو به مذهلاتُ النَّاىِ والوَتَرُ[٢]
فقُلْ لمن نام أصبحتَ انْتَبِه فلقد ... مضى لك الليل صِرْفًا وانقَضى السَّحَرُ
وانظرْ إلى الصبح سَيْفًا فى يدىْ ملكٍ ... فى الله من جُنْدِه التأييدُ والظَّفَرُ
يَرْعَى الرعايا بطَرْفٍ ساهرٍ يَقِظٍ ... كما رعاها بِطَرْفٍ ساهرٍ عُمَرُ[٣]

ويُظِلّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا فى قتال النصارى ما أخَّر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويموج ديوان الأعمى التطيلى بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يموج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتميم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تميم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفْتَتَحٌ بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول[٤]:

وأَبْلَجَ منصورِ اللِّواء إذا سَرَى ... أظلَّتْ عُقابُ النَّصْر أجنحةَ النَّسْرِ
له فتكةٌ لو زاحم الدهرَ تحتها ... لَعُدَّتْ به دُهْمُ الليالى من الشُّقْرِ
وعزمٌ يردُّ الطَّوْدَ هَدًّا ونَجْدَةٌ ... تهزّ قُدودَ السُّمْر فى الحُلَلِ الحُمْرِ
تقسَّمه جودٌ يَفيضُ وهِمَّةٌ ... فمن مَنْهَلٍ غَمْرٍ ومن جَبَلٍ وَعْرِ

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات فى معانى الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالى شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمته لا تبارى كجبل وعر لا يساميه جبل فى وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بديعة فى مديح زوجة تميم مريم، وكانت سيدة أديبة

---

(١) راجع القصيدة فى الذخيرة ٢/٢٥٦ وانظر فى ترجمة ابن الجد المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجد إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والغناء وكأنهم يعيشون فى دور ملاهٍ لا فى دور حكم وسياسة.

(٣) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازى) ص ٢٥ وما بعدها.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة[١]:

مشهورةٌ فى الفضل قِدْمًا والنُّهَى ... والجودِ شُهْرَةَ غُرَّةٍ فى أدْهَمِ
تُولِى الأيادى عن يدٍ نَزَلَ الندى ... منها بمنزلةِ المحِبِّ المُكْرَمِ
حمل الثناءَ بها القريضُ وإنما ... حمل الحديثَ روايةً عن مسلمِ

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عَطِرا عطرَ الحديث المروىِّ عن مسلم فى صحيحه مبالغة منه فى بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة فى الفصل الثانى. وفى ابن تيفلويت والمرابطين يقول ابن باجة معللا لاسمهم «الملثمين» إذ كانوا يضعون لثاما على وجوههم[٢]:

قــومٌ إذا انتقبـوا رأيت أهِلَّةً ... وإذا هُمُ سَفَـرُوا رأيتَ بُدورا
لا يسألون عن النَّوال عُفاتَهُمْ ... شكرا ولا يَحْمُون منه نَقِيرا[٣]
لو أنهم مسحوا على جَدْب الرُّبى ... بـأكفِّهم نَبَتَ الأقـاحُ نَضِيـرا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا يبقون منه لأنفسهم أى شىء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزَّت وربتْ وأنبتت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعينى المار ذكره بين البلاغيين فى الفصل الماضى مدحة فى الزبير بن عمر الملثم والى قرطبة يقول فى تضاعيفها مخاطبا الملثمين أو المرابطين[٤]:

جُولوا وصُولوا فالمناسبُ جِمْيَرٌ ... أهلُ المفاخر والنَّدَى والنادِى
للقوم فى كل البلادِ رياسةٌ ... تحكى بنى العباس فى بَغْدادِ
أضْحَتْ مجالسُهم سروجَ جيادهم ... إن السروجَ مجالسُ الأمجادِ

---

(١) الديوان ص ٩٧ – ٩٨.
(٢) النفح ٤١٧/٣.
(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب المعروف .. النقير: الشىء المتناهى فى الصغر.
(٤) انظر الأبيات فى ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

والصورة فى البيت الأخير بديعة، ولليكّى يحيى بن سهل هجَّاء الأندلس فى المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغا بهم الغاية من المديح[١]:

قومٌ لهم شرفُ العلا فى حميرٍ ... وإذا انتَمَوْا صنهاجةً فهمُ هُمُ
لما حَوَوْا إحْرازَ كلِّ فضيلةٍ ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب وراعية للشعر والشعراء، وهى أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء فى مدينة «سَلا» على شاطئ المحيط، وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضى على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطى ومحمد بن سوار الأُشبونى المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله[٢]:

لو أن رِفْقَكَ فى القلوب مركّبٌ ... لم يَلْتقم فى البحر يونسَ حوتُ
ولقد حملتَ من الوقار سكينةً ... لم يحتملْها قبلك التابوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مُليم﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربِّكم﴾. وخلف عليا فى القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام فى ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موئلا لشعراء الأندلس، وبنى أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبوعامر محمد بن الحمارة حاضرا ولم يكن أعدَّ شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد[٣]:

يا أوحدَ الناس قد شيَّدتَ واحدةً ... فحُلَّ فيها حلولَ الشمس فى الحَمَلِ[٤]
فما كدارِكَ فى الدنيا لذى أملٍ ... ولا كدارك فى الأخرى لذى عَمَلِ

ومرَّ بنا فى ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خصَّ القاضى أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نوالهما عليه، مما جعل لسانه

---

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى بين الهجَّائين.
(٢) البيتان فى ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.
(٣) انظر ترجمة أبى عامر فى النفح ١٣/٤ و١٤٠ وقد دعاه أبا الحسين على بن الحمارة وراجع ترجمته فى المغرب ١٢٠/٢ وفى البغية ص ٥١٧.
(٤) الحمل: من منازل الشمس.

يلهج بمديحها والثناء عليها طويلا، من مثل قوله فى يحيى من مدحة طويلة[١]:

نَدْبٌ عليه من الوقار سكينةٌ ... فيها حفيظةُ كلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ[٢]
مثل الحسام إذا انطوى فى غِمْدِهِ ... أَلْقَى المهابةَ فى نفوس الحُضَّرِ
أَزْرَى على البحر الخِضَمِّ لأنه ... فى كل كفٍّ منه خَمْسَةُ أَبْحُرِ
أقبلتُ مـرتـادًا لجـودكَ إنـه ... صَوْبُ الغمامةِ بل زُلالُ الكَوْثَرِ[٣]

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظلُّ بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيَّان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفى سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده فى حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومديحه، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفى مقدمتهم الأصم المروانى القرطبى الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافى البلنسى محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلى وأخيل الرندى وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطى، وأنشده مدحة يقول فى تضاعيفها[٤]:

دعانا نحو وجهك طِيبُ ذِكْرٍ ... ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ
وكنت كساهرٍ ليلا طويلاً ... ترنَّح حين بُشِّر بالصباح

ورتَّب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاة لمدنها الموالية له، وولَّى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين فى الأندلس، وولَّى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محبًّا للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ – ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مدَّاحه أبو محمد المالقى وهو يستهل مدحة قدَّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمنه تسنده سُوَرُ الحواميم القرآنية السبع التى يرددها هى وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

---

(١) ابن خلكان ٢٠٤/٦.
(٢) حفيظة : حمية. ليث مخدر: أسد فى خدره وغيله.
(٣) صوب: مطر. الكوثر: نهر فى الفردوس.
(٤) انظر مدحته فى المغرب ١٦٤/٢ وسنخصه بكلمة فى الفصل التالى.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسنده وتنصره السبع المثانى وهى آيات سورة الفاتحة السبع التى يرددها كل يوم فى صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينهما فى المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحديث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذى نبَّهه - كما مرَّ فى الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ.) وفى أيامه شرع فى بنيان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأرَك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرَّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفزعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزلهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكتفى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور[١]:

حَيَّتْك معطَّرةَ النَّفسِ ... نفحاتُ الفَتْح بأنْدَلُسِ
فذَرِ الكفارَ ومَأْتَمَهم ... إن الإسلام لفى عُرُسِ
أإمام الحقِّ وناصِرَهُ ... طهَّرتَ الأرض من الدَّنَسِ
وصدعتَ رداءَ الكفر كما ... صَدَع الدَّيْجُورَ سَنَا قَبَسِ[٢]

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سُقِيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويملؤهم هلعا قائلا إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنَّتها وأغار بها روح

---

(١) القصيدة بتمامها فى المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفى عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطريَّة القرطبى[١]:

كذا يشرفُ الطالعُ الأسْعَدُ ... ويسمو لأملاكه السَّيِّدُ
ويَرْعَى أقاصىَ أقطارِه ... قريبٌ له عزمةٌ تَبْعُدُ

وأخذ الناصر يعدّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوربا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رحى هذه الموقعة الصليبية أن دارت فى سهل يقع إلى الشمال الشرقى من قرطبة وجنوبى قلعة رباح، ومُنى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيرًا لانتهاء دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعا على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهنا على وهن، مما هيأ لملوك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط فى حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شىء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها الى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التى ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدم إليه مدحة يقول فيها[٢]:

أميرَ الهُدَى من يَدْن منك فإنه ... بِقُرْبك عن صَرْف الحوادث قد أُقْصى
عسى الله أن ينتاشَ أنْدُلسًا بكم ... ويأخذ فيها للهدى أخْذَ مقتصِّ

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قُيِّض للأندلس منذ الثلاثينيات فى القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التى استمرت نحو قرنين ونصف،

---

(١) انظر البيتين فى ترجمته بالمغرب ١/١٣٩ وله ترجمة فى تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها بعض شعره.

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت) ص ٦٦.

وطبيعى أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعى أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر فى الفروسية والإقدام والسعادة فى لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجَحافِلُ وتُذْخَرُ أبناءُ القَنَا والقنابلُ»[١]

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفى سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصارى الشماليين، وأرْغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أراجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالى سنة ٧١٨ فى مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنئه أبو عبدالله اللوشى بمثل قوله[٢]:

قصدوا العَرينَ ليغلبوا آسادَهُ فقضى عليهم بأسُك الغلَّابُ

وقويت شوكة المسلمين فى عهد أبى الوليد وعهد ابنه أبى عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعاده بعد موقعة بحرية عنيفة سُحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنئه بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سماك العاملى منشدا[٣]:

فتحٌ قضاه لمُلْكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأىِّ يومِ سعادةٍ أولاكَهُ ذلَّتْ بعزَّةِ نَصْرِه الصُّلْبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للآداب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون فى مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوى الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع، وفى ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيَّن بها قبَّة العَرْض المطلة على مجلسه فى الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة[٤]:

---

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة أبى عبدالله اللوشى فى الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع فى ترجمة اللوشى الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

(٣) راجع ترجمة ابن سماك العاملى فى الكتيبة الكامنة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصيب والجهام والماضى والكهام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

أأبصرت مِنِّى فى المصانع قُبَّةً تأنَّق فىَّ السَّعْدُ من كل جانبِ
فتُتْلَى سُطورُ الكُتْب فوقىَ دائما وتُعْرَضُ من تحتى سطورُ الكتائبِ

والقطعة بديعة، ولابن جُزَىّ الغرناطى مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة فى أبى الحجاج من مثل قوله[١]:

إن المعالىَ والعوالىَ والنَّدَى والبأسَ طَوْعُ يَدَىْ أبى الحجاجِ[٢]
ماضى العزيمة والسيوفُ كليلةٌ طَلْق المُحَيَّا والخطوبُ دواجى
ليث الوَغَى والخيلُ تُزْجَى بالقنا والبِيض تنهلُ من دم الأَوْداج[٣]

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) مكمل منشآت قصر الحمراء، وكان ممدَّحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان حفيد الغنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) شاعرا، ولزمه ابن فُرْكون الشاعر يمدحه واتخذه كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلَّد السلطة[٤]:

إليك تباشيرُ البشائر مُقْبله تلوح بآفاق الهدى متهلِّله
فهُنِّئْتَ ما استقبلتَ يا ملكَ الهدى من العزِّ لا زالتْ سعودك مقبله
لقد قلَّد الرحمنُ أمرَ عبادهِ إمامًا له فى العدل أرفعُ منزله

ويُعَدّ يوسف الثالث آخر أمراء بنى الأحمر المهمين، ويفضون بعده فى القرن التاسع الهجرى إلى خلافات، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث عن أهم شعراء المديح فى الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطلى وابن عمار وابن الحداد والرُّصافى وابن زمرك.

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ترجمة ابن جزى الضافية فى أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف فى كتابه نثير فرائد الجمان وابن الخطيب فى الكتيبة الكامنة ص ٤٦.

(٢) العوالى: الرماح.

(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق إذا قطعه الذابح لم تبق فى الإنسان حياة.

(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن شريفة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

ابن عبد ربه[١]

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، فى أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ فى جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضّاح والخشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - فى الغزل والخمر، وقلما يقع له فيهما شعر جيد.ويبدو أنه لم يكن ينظم فيهما عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيهما عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له فى الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدِ ... ياوحشةَ الروح بل ياغربة الجسَدِ
إن تبكِ عيناك لى يامَنْ كلفتُ بهِ ... من رحمةٍ فهما سَهْماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجَرَّ عليه ذلك اشتباكه مع القلفاط الشاعر معاصره فى الهجاء، ونراه فى كثير من أشعاره شابا وشيخا ميالا إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادرا فى ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية فى شبابه بمقطوعة فى ذم الدنيا والتنفير منها، وسمّى تلك المقطوعات الممحِّصات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدَّ شعره فى شبابه ذنوبا وآثاما وهو إنما كان فى رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافا حقيقيا للآثام، لأنه لم يكن مهَّيئا لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مرارا فى عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى ٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبغية رقم ٣٢٧ واليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٥/٢٢ - ١٠، ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١ ومعجم الأدباء ٢١١/٤ والمطمح ص ٥١ وابن خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود مكى ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر ملشور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن الناصر والعقد الفريد لابن عبدربه ونفح الطيب للمقرى. انظر فى كل ذلك الفهارس،وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٢٢٣.

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال الصاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، وهو رمز واضح لروحه المسرفة فى المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياته وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى فى مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خُلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بالمنذر بن محمد شَرُفَتْ بلادُ الأندلسْ
فالطيرُ فيها ساكنٌ والوحشُ فيها قد أَنِسْ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ.) ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد فى المبالغة على عادة الشعراء:

إذا فُتحتْ جنَّاتُ عَدْنٍ وأُزْلفتْ فأنت بها للأنبياء رفيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الثائر فى إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهنأه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفى الثانية يقول:

هذى الفتوحاتُ التى أذكتْ لنا فى ظُلمة الآفاق نورَ سِراجِ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ.) جده عبد الله وكان ابن عبدربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين فى الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم فى الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعِد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتى حصن من حصون الثوار ويهنئه ابن عبدربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فى غزوةٍ مائتا حِصْنٍ ظفرتَ بها فى كل حصْنٍ غواةٌ للعناجيج[1]
ما كان ملكُ سليمانٍ ليدركها والمُبْتَنِى سَدَّ يأجوجٍ ومأجوجِ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين بانى سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عبدربه فى حروب الناصر من سنة ٣٠٠

(١) العناجيج: الخيل.

إلى سنة ٣٢٢ منظومة[١] تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذى نقرؤه فى حديثه عن غزوة المُنْتلون بجيَّان:

أَرْجفتِ القِلاعُ والحصونُ كأَنما ساورها المَنونُ[٢]
وأقبلتْ رجالُها وُفودَا تَبْغى لدى إمامها السُّعودا
قلوبهم باخعةٌ بالطَّاعَةْ قد أجمعوا الدُّخولَ فى الجماعَهْ

وأسلوب ابن عبد ربه فى المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها فى دوائر الشعر التاريخى التعليمى كمنظومة على بن الجهم التاريخية التى ألممنا بها فى كتاب العصر العباسى الثانى، وفى الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يحلِّق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن[٣] دراج القسطلى

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ فى بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جَيَّان تسمى قسطلة دراج، وفى نسبتها إلى جده ما يدل على عراقة أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فاتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلدته، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

(١) أنظر فى هذه المنظومة العقد الفريد لأبن عبدربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ ومابعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع فى ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والحميدى ١٠٢ واليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتمس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب ص ١٥٦ والمعجب للمراكشى ص ٨٥ والبيان المغرب لابن عذارى ٢٧٤/٢ و ٩/٣ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ - ١٢٤ وأيضا فى مواضع مختلفة وابن خلكان ١٣٥/١ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكى وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبى عامر حاجب المؤيد هشام فى الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة فى المنصور أعجبته فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته فى نظم الشعر وهو يوفّق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له فى مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس فى رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم فى معارضتها قصيدة بديعة صوَّر فيها امرأته متلهفة عليه فى وداعه مشفقة ورضيعها فى المهد وهى تتجرع مرارة الفراق وتنتحب .. يقول:

ولما تدانتْ للوداع وقد هَفَا ... بصبرىَ منها أنَّةٌ وزفيرُ
تناشدنى عهدَ المودَّة والهوى ... وفى المَهْد مبغومُ النِّداءِ صغيرُ[1]
تبوَّأ ممنوعَ القلوب ومُهِّدَتْ ... له أذرعٌ معطوفةٌ ونحورُ

ويطيل فى تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى فى الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه فى قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد فى أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبارّة معلنا ولاءه ومحكِّما له فى نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فَلْيَسْمُ للمجد مَنْ سَما ... ويَحْمى ذِمارالملك والدين مَنْ حَمَى[2]
فهذا عظيمُ الشِّرْك قد جاء خاضعا ... وألقى بكفَّيْه إليك محكِّما

ووفد فى نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف فى لامية له مثوله خانعا بين يدى المنصور والعرضَ العسكرى الرهيب الذى أقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحقٍّ أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب فى جلِّيقية بأقصى الشمال الغربى

---

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.

(٢) ذمار الملك: ما ينبغى حياطته والدفاع عنه.

لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفى كنيستها، وتُعَدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفى تلك الوقعة يقول ابن‌دراج فى مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرَى دينِ الضلالة من ... رأسِ القواعد ممنوعِ الحِمَى أَشِبِهْ[1]
وسُمْتَه جاحما للنار مابقيتْ ... نفسٌ من الكفر إلا وَهْىَ من حَطبه
فاللّهُ جازيك يامنصورُ غزوتَه ... بسيفِ ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستنَّ سنة أبيه فى غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن فى الحجابة لمدة شهرين إذ قُتل فى إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعانى منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدِّمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدى، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزيره القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سِبْتة لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر فى مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرَّ بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى فى الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا فى أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبى، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خَيْرانُ ... وبُشْراك قد آواك عِزٌّ وسلطانُ

ويقصِّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجيبيين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها فى رعاية منذر بن يحيى التحيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكّل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمتَ، مُطْعِمُها ... ذُعافَ سُمٍّ لمن حاربتَ ناقعهُ[2]
مواصلًا بالنَّدى مالله واصلهُ ... وقاطعا بالظُّبَى ما الله قاطعُهُ

---

(١) أشب: ملتف الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

فى جيش عزٍّ ونصرٍ أنت غُرَّتُهُ وشَمْـل دينٍ ودنيا أنت جـامعُه

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:

إلى أىِّ ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ ومن أىِّ بحرٍ بعد بَحْرك أَمْتاحُ

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد بابن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبى يقول عنه فى اليتيمة: «كانِ بصُقْع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سبَّاق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد«بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحَوْك الكلام وتلاعبه بالمعانى وإطالته فيها» ويقول ابن بسام عنه: «لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحِظ بحق كثرة اقتراضه للمعانى من المتنبى، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكى فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. ومما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشارقة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانئ فى العناية باللفظ الطنان وقعقعاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبى فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضياع سنين عديدة.

ابن[١] عمار

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنَّبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محراثه قَرْض شيء من الشعر قَرَضه له توا فى أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعيا أن تهدى إلى الأندلس شاعرا فذا من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلا لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبوالحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأدبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضنك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى[٢] أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس[٣] دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به فى بعض مدن الأندلس مسترفدا، لا يبالى ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحا فى رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفر، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخلاة شعير، وفكّر فى دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب فى بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى ... والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنان عن السُّرَى[٤]

واستحسنها المعتضد وأمر له بمال وثياب ومركب وأن يُكْتَب فى ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره فى تلك الولاية وساءت السمعة عنهما لعكوفهما على الخمر والغناء، فأمر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيراء (طبع القاهرة)١٣١/٢ والمغرب ٣٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والخريدة ٧١/٢ وبغية الملتمس رقم ٢٢٧ وابن خلكان ٤٢٥/٤ ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: المسير ليلا.

المعتضد بالتفريق بينهما وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة وفترة عند أبى عبد الرحمن بن طاهر أمير مُرْسِية، وفترات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفى المعتضد فاستدعاه المعتمد وقرَّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذه وزيره ومستشاره.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزيَّن له ذلك ابن عمار، فأعدَّ جيشا جرارا بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراع له حرمة برِّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتمادى فى إنكاره للجميل إذ سوَّلت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هى وأعمالها، وجلس مجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خِساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثا حاول المعتمد بن عباد أن يرده عن غَيِّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلا من أن يطلب الصفح هجاه وهجا زوجته الرُّمَيْكيَّة قرة عينيه بقصيدة طارت شهرتها فى الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يـا زَيْدَهـا منعتَ القِرَى وأبحتَ العِيالا[1]

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر فى العواقب، وبينما كان سادرا فى خمره ولهوه أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببنى إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها فى يده، حينئذ انتهز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية فى وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولَّى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ – ٤٧٨ هـ) واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد ولىِّ نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علىَّ وإلا ما نُواح الحمائمِ وفىَّ وإلا ما بكاء الغمـائمِ

وأخذ يذكِّره بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيما. ولم يلبث أن رغَّب المؤتمن فى الاستيلاء على حصن شقورة شمالى مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة فى شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

---

(١) القرى: طعام الضيوف.

المعتمد ابنه الراضى بمال وخيل، وتسلَّمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظم فى طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجاياك - إن عافيتَ - أندى وأسمحُ وعذرُك - إن عاقبتَ - أجلى وأوضحُ

ولم ينفعه عند المعتمد تذلله فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفا فى قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استثارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون ببيت مفرد هو قوله:

عجبًا لمن أبكيه ملْءَ مدامعى وأقولُ: لاشَلَّتْ يمينُ القاتلِ

وبدون ريب كان ابن عمار انتهازيا وصوليا لا يرعى صداقة ولا عهدا، أما شعره ففى الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح فى القلائد: «مقذف حصا القريض وجِماره ومطلع شمسه وأقماره» ويقول ابن بسام: «شعره غرَّب وشرَّق، وأشأم فى نغم الحُداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب فى أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويطيل فى الإشادة به، ويقول ابن الأبار فى ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة فى الامتياح وقصائده المصوغة فى الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شىء سوى أمداحه فى المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية فى المعتضد عباد التى ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضا كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلَّد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبادٌ المخضرُّ نائلُ كفِّهِ والجوُّ قد لبِسَ الرداءَ الأغْبَرا[1]
أنْدَى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدَى وألذُّ فى الأجفان من سِنَة الكَرَى[2]
أيقنتُ أنى من ذراه بجنَّةٍ لما سَقانى من نَدَاه الكَوْثَرا[3]
فاحَ الثَّرَى متعطِّرًا بثنائهِ حتى حسبْنا كلَّ تُرْبٍ عَنْبَرا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعانى البديعة، ومما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقِّه لأعناق كُماتهم وشجعانهم إذ يقول:

---

(١) الجو قد لبس الرداء الأغبر: كناية عن الجدب.
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة فى أوله.
(٣) ذراه: كنفه. الكوثر: نهر فى الجنة.

أثمرتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهمْ لما رأيت الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا
وصبغتَ دِرْعَك من دِماء كُماتِهم لما رأيتَ الحسن يُلْبَسُ أحمرا

وابن عمار لا يبارَى فى روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكأن مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافى البديع.

ابن الحداد القَيْسى[1]

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى من مدينة وادى آش فى إلبيرة موطن بنى عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف فى صباه - كما يقول ابن بسام - بصبية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها فى حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة فى الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضا فى الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء فى موطنه، ويذكر مترجموه أن له فى العروض كتاب «المستنبط فى علم الأعاريض المهملة عند العرب» ولا أرتاب فى أنه لو وصل إلينا لكان دليلا قويا على ما قلته فى حديثى عن الموشحات من أن الأعاريض المهملة التى يُنْظم فيها والتى أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هى أعاريض العرب المهملة التى نصَّ عليها الخليل فى دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبيرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له فى العروض كتابا ثانيا باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتابا ثالثا باسم: «الامتعاض للخليل» ردَّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية. ولا أرتاب فى أن كتبه جميعا تؤكد ما ذهبت إليه فى فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات فى الأوزان المهملة التى أشار إليها الخليل فى وضعه لدوائره العروضية، وهى مرسومة بدقة فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُمادح التجيبى أمير المريَّة التى بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقى للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

---

(١) انظر ترجمة ابن الحداد فى الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢ والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوافى للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميرا لها فى الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التى امتدت إلى أكثر من أربعين عاما، وكان يخصص يوما فى كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بلّيطة الطليطلى والقزاز محمد بن عبادة الإلبيرى المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركى ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذى عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله فى إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ ... لما كانت الأيامُ عندى ذخائرا
يحجُّ ذَراه الدهرَ عافٍ وخائفٌ ... جُموعا كما وافى الحجيجُ المشاعرا[١]
فزر مكّةً مهما اقترفتَ مآثما ... وزُرْ أفْقَهُ مهما شكوتَ مَفاقِرا[٢]
تهيمُ بمرآهُ العصورُ جلالةً ... وتحسدُ أولاها عليه الأواخرا

والصورة فى البيت الثانى رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله فى مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشدا.

ويا لك من نَهْرٍ صَئُولٍ مُجَلْجِلٍ ... كأن الثَّرَى مُزْنٌ به دائمُ الرَّعْدِ[٣]
كأن يدَ المَلْكِ ابنِ معنٍ محمَّدٍ ... تُفجِّره من مَنْبع الجود والرِّفْدِ[٤]
فمن جوده ما فى الغمامة من حَيًا ... ومن نوره ما فى الغزالة من وَقْدِ[٥]
ومنك أخذنا القول فيك جلالةً ... وما طاب ماءُ الوَرْد إلا من الوَرْدِ

وقَرْنُ جلجلة ماء النهر فى حصباء الثرى بصلصلة الرعد الدائم فى السحاب الممطر فى منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور فى البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخًا له اقترف ذنبا اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشىء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية موليا وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) بسرقسطة، وكان شاعرا يقدر الشعر وأهله كما كان بطلا مجاهدا

---

(١) ذراه: حماه وكنفه عاف: طالب معروف. المعطر.
(٢) مفاقر: وجوه فقر. (٤) الرفْد: العطاء.
(٣) صئول: شديد الهياج. المزن: السحاب (٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغنى بانتصاراته على ابن ردمير حاكم أَرَاجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدوَّر فى نَحْر العدو:

مساعيك فى نَحْرِ العدوِّ سِهامُ ... ورأيُك فى هامِ الضلال حُسامُ[١]
ولَحْكُ يرْدِى القِرْنَ وهوُ مُدَجَّجٌ ... وذكرُك يَثنى الجيش وهو لُهامُ[٢]
كأنك لا ترضى البَسيطةَ منزلا ... إذا لم يُطَنِّبْه عليك قَتَامُ[٣]
كأنك خلت الشمسَ خَوْدا فلم يَزَلْ ... يقنِّعها بالنَّقْع منك لِثامُ[٤]

وواضح أنه أبدع فى تصوير غزوات المقتدر المستمرة التى لا يزال يشنها على العدو حربا فى إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا فى الأرض إلا ساحات القتال وقد شُدَّت عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويُبْعد فى الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذا منه لها لثاما أو حجابا. وحنَّ إلى المعتصم بن صمادح، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردِّد.

واصِلْ أخاك وإن أتاك بجفوة ... فخلوصُ شىءٍ قلما يتمكَّنُ
فى كلِّ شىءٍ آفةٌ موجودةٌ ... إن السِّراج على سَناه يُدَخِّن

وذكرنا فى صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سماها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيما ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناسُ فانفرادى أنيسى ... وكتابى محدِّثى وجليسى
صاحبٌ قد أمنتُ منه مَلالا ... واختلالا وكلَّ خُلْقٍ بَئيسِ

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشرهم طويلا دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبىَّ ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

---

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهام: الجيش الجرار.
(٣) يطنبه: يغطّيه كالخيمة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحسناء. النقع: غبار الحروب.

الأعمى التُّطِيلى القَيْسى[١]

هو أبو جعفر - وقيل أبو العباس - أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة التطيلى القيسى، فهو عربى الأرومة، أما نسبته إلى تُطيلة - وكانت تقع إلى الشمال الغربى من سرقسطة - فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه - وربما جده - هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فوُلد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مَرْباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضيِّق باستيطانها، يقول عنها:

فتَاللهِ ما استوطنتُها قانعًا بها ولكننى سَيْفٌ حَـواه قِرابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لابد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلان ذلك بَرَمٌ وقلق كانت تنطوى عليهما نفسه، بسبب فقده لبصره، إذ كان ضريرا، وبكّر إليه - فيما يبدو - شىء من الصلع أو بعض الشعرات البيض فى رأسه، مما جعله يصرخ:

أما اشتفتْ منِّىَ الأيامُ فى وطنى حتى تضايق فيما عَنَّ من وَطَر[٢]
ولا قضتْ من سَواد العين حاجتَها حتى تِكرَّ على ما كان فى الشَّعَرِ[٣]

وكان يلتقى فى إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشّاحين المجيدين فى مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقى وكان يقدِّمه على نفسه معترفًا له بالتفوق والسبق فى التوشيح كما مرَّ بنا فى حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلى هو أبو القاسم بن أبى طالب الحضرمى المنيشى بمرافقته فى روحاته وغدواته. وليس فى ديوانه مدائح لأمراء الطوائف ولا ليوسف بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت فى القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفى سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتُبط (مات) شابا (أو قريبا من

---

(١) انظر فى ترجمة الأعمى التطيلى وأشعاره الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلائد ص ٢٧٣ والخريدة ٥١١/٣ وبغية الملتمس رقم ٤٢٩ والمغرب ٤٥١/٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٤١٠ ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس فى دار الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرّ: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل والنهار.

الشباب) عندما به اغتُبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفى ديوانه مرثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر فى بعض شعره أنها كانت تُعنِّفه لقعوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء فى إشبيلية من مثل بنى الحضرمى وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبى العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظَ به أحد من أهل الأندلس فى وقته وله ينشد:

خَشُنْتَ فلم تَتْرك وأنت منازَعٌ ... ولِنْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ
من المَجْدِ دانٍ دونه متعرِّضٌ ... إلى الهول سباقٌ عليه جَسُورُ
كفيـلٌ بأرواح الأنـام موكَّـلٌ ... عليمٌ بـأسرار الحِمـام خبيـرُ

وهو يشير فى البيت الأخير إلى مهارة أبى العلاء فى الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم فى أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد، ويتوسل فى إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف مواطنه،الذى اتخذه الأمير المرابطى جليسا له ومستشارا،أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفى إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جنـابُك للعُـلا حِصْنٌ حَصِينُ ... وذكـرُك للمُنَى دُنْيـا ودِيـنُ
طليعةُ جيشك الظَّفرُ المُوَاتِى ... وظـلُّ لِوائـك الفَتْـحُ المبينُ
جـوادٌ بـالـديـار ومـا حَـوَتْـهُ ... ولـو أنَّ الزمـان بهـا ضَنِينُ
قـد اهتزَّتْ بـأَنْعُمِك الليـالى ... كمـا تهتـزُّ بـالثَّمـرِ الغصـونُ

وله فى على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضى على هذه الشاكلة:

سـمـا عـلىٌّ ... لإمـرة المسلمينـا
صبـحٌ جَـلِىٌّ ... راقَ، النُّهى والعيونا[1]
سـمـحٌ أبـىٌّ ... يـرضيك شَـدًّا ولِينـا
كالهُنْدوانى ... وكالغمام الهتَّان ... وَفْـقُ الأمـانى ... ومِلْء عَيْنِ الزَّمانِ

(١) النهى: العقول.

وممن أكثر من مديحهم ابن حمدين أبو القاسم أحمد بن محمد التغلبى قاضى الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائحه إليه، وفى أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أسدٌ يملأ العَرِينَ من البَأْ ... سِ وطَوْدٌ يحمى من الإمْلاقِ[١]
زُهِيَتْ خطةُ القضاء به زهـ ... ـوَ حَمامِ الغصونِ بالأَطْوَاقِ
أَرْيَحِيٌّ تـراه يهتـزُّ لـلبـذْ ... لِ اهتزازَ القضيب للإيراق[٢]

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقى ورآه يطرق أبواب بنى عشرة قضاة سَلا رعاة الشعر لزمانه كما مرَّ بنا فى ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضى بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقى يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لقاضى قُضاة الغَرْبِ وابن قضاتهِ ... تـودَّدتِ الآمال وَهْىَ سَـوامكُ[٣]
إذا سمعتْ أُذْناه حَىَّ على العُلا ... فلا الجودُ متروكٌ ولا البأس تارك
رفعتم لأهل الغرب أعلامَ دينهم ... فـأبصر مـأفوكٌ وأقْصَـر آفـكُ[٤]

وقد أضيفت إلى الشاعر فى الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضى أبا الحسن على بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهانى فى الخريدة ذكر أنها فى مديح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وفى رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضى المذكور توفى سنة ٥٠٢ وكان التطيلى لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له فى الأمير على بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه فى بنى عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا فى ترجمة يحيى بن بقى أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقى، فنسبتها إلى التطيلى مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن على بن القاسم حرى بهما أن تنسبا أيضا إلى ابن بقى مثل أختهما رقم ١١ فى ملحق الديوان إذ هو الذى تفيأ ظلاله كما نصَّ القدماء وتغنى به فى غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ فى مديح من يسمى

---

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: القوة. طود: جبل. الإملاق: الفقر.
(٢) القضيب: الغصن: الإيراق: خروج الورقة منه.
(٣) سوامك: جمع سامك: عال.
(٤) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

يوسف بن القاسم، فهى التى يمكن أن تضاف إلى التطيلى، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ[١] المتصوف فى القرن السابع الهجرى، وفيها يقول:

إن جئت أرض سَلا ... وافاك بالمكارمِ فِتْيانُ
هُم سطور العُلا ... ويوسف بن القاسمِ عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر الذى مهَّد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيما يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة فى قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتَّاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم فى الشعر وتشارك فى نقد بعض الأبيات، وممن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاتبان أبو بكر بن القصيرة وابن المُرْخَى محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلى عليها فى قصيدته:

مليكةٌ لا يوازى قَدْرَها ملكٌ ... كالشمس تَصْغُر عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنْيَا ولا ترفٌ، دِينٌ ولا قَشَفٌ ... مُلْكٌ ولا سَرَفٌ دَرْكٌ ولا طلبُ
بِرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هِرَمٌ ... جَدٌّ ولا نَصَبٌ وِرْدٌ ولا قَرَب[٢]

ويفيض التطيلى فى وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى والى قرطبة ومحمد محرِّر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفى منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلى اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر فى غامضه واسع، وفهم لا يجارَى، وذهن لا يبارَى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء فى ذلك بالنادر المعجز، فى الطويل منه والموجز».

---

(١) انظر أزهار الرياض للمقرى ٢/٢٣٣ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعنى أن وِرْد العطاء لهذه السيدة فى متناول الأيدى ولا يكلف عناء ولا مشقة.

الرُّصافى محمد بن غالب[١]

وُلد محمد بن غالب فى رصافة بلنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة، إذ كان أبوه رفّاء، وكأنما كان مولده فى تلك الرصافة بشيرا بأنه سيكون من شعراء الطبيعة فى الأندلس لجمالها إذ كانت - كما يقول ابن سعيد فى ترجمته بالمغرب - مناظر وبساتين ومياها جارية، وفى بلنسية يقول: «خصَّها الله بأحسن مكان، وحفَّها بالأنهار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازه ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ الطفل المرهف غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه - فيما يبدو - لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيرا فى نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله - فيما بعد - يكثر - كما قال ابن الأبار فى ترجمته بالتكملة - من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفى ذلك يقول عنها:

بلادى التى رِيشتْ قُوَيْدمتى بها ... فُـرَيْخًا وآوتْنى قَـرارتُهـا وَكْـرا[٢]
مِهادى ولَيْنُ العَيْش فى رَيِّق الصِّبا ... أَبَى الله أن أَنْسى لها أبدًا ذِكْرَا

وطار الطفل صغيرا من وكره مع أبيه إلى عُشٍّ متواضع فى مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رَفْو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كُتَّاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والتزود من علوم الدين الحنيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُرْوى أنه خرج مع بعض رفاقه فى الدراسة إلى نزهة فى مالقة، وارتجل فى تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُسْتدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله فى جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن - كما مرَّ بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافى، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعا كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصوِّر شاعرية

---

(١) انظر فى ترجمة الرصافى وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشى ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوافى ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها فى دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافى البلنسى مع مقدمة عن حياته وشعره.

(٢) قويدمة الطائر: الريشات فى مقدم الجناح.

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدىً الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبَّت فى جانب جبل الفتح كالنار التى جاء فى القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودىَ يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نَعْليك إنك بالوادى المقدس طُوَى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾ وتمثَّل الرصافى الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحا قصيدته بقوله:

لو جئتَ نارَ الهُدَى من جانب الطُّورِ ... قَبَسْتَ ما شئتَ من عِلْمٍ ومن نورِ
فَيْضِيَّةَ القَدْحِ من نور النبُّوة أو ... نـور الهدايـة تجلو ظلمةَ الـزُّورِ
ما زال يُقْضمها التَّقْـوَى بمَوْقِـدِها ... صـوَّامُ هـاجـرةٍ قـوَّامُ دَيْجُـورِ[1]
نورٌ طوى الله زَنْدَ الكون منه على ... سِقْطٍ إلى زمن المهدىِّ مَذْخورِ[2]
حتى أضاءتْ من الإيمان عن قَبَسٍ ... قد كان تحتَ رمادِ الكفر مكفورِ[3]

ويشيد الرصافى بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدى إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التى طبَّقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تتهادى بين أيدى مجاذفها وكأنها تغرق فى ماء الورد الأرجوانى الصافى، وتسرع خائضةً التيارات فى الزُّقاق فيُخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافى فى تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد فى عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيَّد الخَطْو غير أنه جوَّال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكًا، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به ويهدى دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله فى جبل طارق والمهدى ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبلَ الطور وموسى وفتاه يوشع قامع الجبابرة الذى تأخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافى أن يقدرها عبد المؤمن

---

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.
(٢) الزند: الحجر الأعلى الذى تقدح به النار. السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.
(٣) مكفور: محجوب مستور.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمى للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاها، وفوجىء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفُّوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مِثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسَّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمما أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفيا بصنعة رَفْو الملابس. وسكن غرناطة وقتا وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبى جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألحَّ عليه فى امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها مجاملة لأبى جعفر. وفى بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة فى المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحدا، وراجعه بعض الشعراء فى ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً ... لأدركتَ حَتْمًا فى الزمان بها أمرا
ومن دون هـذا غَيْرَةٌ جـاهليَّةٌ ... وإنْ هى لم تلزم فقد تلزم الحُرَّا

وهى ليست غيرة جاهلية، بل هى غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره فى تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجرا زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقَّشى الشاعر وزير ابن همشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الثائر على الموحدين بمرسية وشرقى الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٧ هـ.) فأخذ يرسل إليه بهدايا نفيسة، ولم ير الرصافى بدا من أن يشكره، ووالى الوقَّشى هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجالُ له ... كثر العَدِيدُ وأَعْوَزَ النِّدُّ[1]
من معشرٍ نَجَمَ العلاءُ بهم ... زُهْرٍ كما يتناسقُ العِقْدُ[2]
وكأنما فاق الأنامَ بهم ... نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وَليدُهمُ المنامَ على ... غير المجرَّة أنه سُهْدُ
هيهاتَ يذهب عنك موضعُه ... هطلَ الغمامُ وجَلْجَل الرَّعْدُ

وظل الرصافى بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا فى المديح ولكن فى الطبيعة وفى بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرِّما على نفسه أن ينتجع أحدا بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

---

(١) الند: النظير. الساطع.
(٢) نجم: نشأ. زهر جمع أزهر: النجم والكوكب

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالى لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفى سنة ٥٧٢ وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مِدون بأيدى الناس متنافَسٌ فيه.

ابن زَمْرَك[١]

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين فى غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقى الأندلس، وهى أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه فى الفقه أبا سعيد بن لب وفى الحديث النبوى أبا البركات ابن الحاج وفى الأصول أبا على منصور الزواوى وفى التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفى العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفى الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخرّيجه وصنيعته، وعُنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خُلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبى سالم المرينى يلتحق به فى منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبى الوليد إسماعيل مدبر المؤامرة ضده، ولم يهنأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقبا له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك-كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما فى رسائل وقصائد ولاءَه له وحمده وشكره

---

(١) انظر فى ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكتى (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضى (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤١٢/٤ وخصَّه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ) بكتاب ضخم سماه البقية والمدرك من كلام ابن زمرك، واطلع المقرى على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثانى من كتابه أزهار الرياض وهى تشغل فى هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رُخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبَّر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المرينى عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المرينى أبا الحسن النباهى قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متهما بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمَى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتَقْدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متهما له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، وبإحدى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته ووُورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبِّرت له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبِّر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفاراته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوَّض له فى عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهوى به من حالق إلى غياهب السجون ويردّ إليه بعد نحو عام ونصف حريته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما اقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمآرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته نقرؤهما وجدناه ينزل فيهما منزلا عليًّا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف:«البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقات والثياب السلطانية فهو له. وينشد المقرى له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرك» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة فى مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة فى مديح ابن الخطيب ولِّ نعمته وسوى قصيدة فى مديح أبى سالم المرينى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مراث فى الغنى بالله ومرثية فى أستاذه الشريف الغرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيثُ الذى يهطل على العفاة دائما والباسلُ الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ فى وصف مبانيه فى قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنـاك الجميـلُ فـإنَّـه	يفوقُ على حكم السعود المبانيا
بنيتَ لـه كفّ الثريـا معيذةً	ويصبـح معتلّ النـواسم راقِيا
وتَهْوى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ بهِ	ولَم تكُ فى أُفْق السماء جَواريا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُوذة له وتميمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقْيَةَ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى فى قنوات مثبتة فى الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرِّية يحملها اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك فى وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

به البَهْوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا	بـه القَصْرُ آفـاقَ السماءِ مُبـاهيا
به المَرْمَرُ المجلوُّ قد شَفَّ نورُه	فيَجْلُو من الظَّلْماء ما كان داجيـا
وراقصةٍ فى البَهْوِ طـوعَ عِنانهـا	تـراجـع ألحـانَ القيـانِ الغَـوانيـا
إذا ما علتْ فى الجِّو ثم تحدَّرتْ	تُحَلِّى بمُرْفَضِّ الجُمَان النَّواصيا[1]
يـذوبُ لُجَيْنٌ سالَ بين جـواهـرٍ	غدا مثلها فى الحسن أبيضَ صافيا[2]
تشـابَـه جـارٍ للعيـون بجـامـدٍ	فلم أدْر أيًّا منهما كـان جاريـا

وتصويره للنافورة فى الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

---

(١) مرفض الجمان: متناثر اللؤلؤ. (٢) اللجين: الفضة.

إذ لم يعد يدرى أيهما السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما فى البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد فى السماء وينشد:

وطامحةٍ فى الجوِّ غيرِ مُطالةٍ ... يردُّ مداها الطَّرْفَ أَحْسَر عانِيا[1]
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ... ويدنو لها بَدْرُ السماء مناجيا
ولا عجبٌ أن فاتت الشُّهْبَ بالعلا ... وأن جاوزتْ منها المَدى المتناهيا

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك فى نفس القصيدة جنة العريف القائمة فى مدخل القصر، وهى من عجائب البساتين والرياض فى الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذى لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها فى مديح الغنى بالله، وإحداها فى مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبته فى الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبى ربيعة وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الغزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخرَ الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى التى رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسِّدين فيه دائما مثاليتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشِّيم الرفيعة كما يتغنون عصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التى يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر فى الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

---

(١) أحسر: كليلا.

الثانى الهجرى وخاصة على لسان الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرَّبَض الجنوبى بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الوقعة[١]:

رَأَبْتُ صُدوعَ الأرض بالسيف راقعًا ... وقِدْمًا لأمتُ الشِّعْبَ مـذ كنتُ يافعـا[٢]
فسائلْ ثُغورى هل بها اليومَ ثَغْرةٌ ... أُبادِرُها مُسْتَنْضِىَ السَّيْفِ دارِعـا[٣]
وشافِهْ على الأرض الفضاء جَماجما ... كأَقْحاف شِرْيان الهَبِيـد لوامعـا[٤]
تُنَبِّيك أنى لم أكن فى قِراعهم ... بـوانٍ وأنى كنت بالسيف قـارعا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحّون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضْرمها بنيران الحروب، فيزجّ به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومرَّ بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحى مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحى بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى إلبيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقالة وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القيسى، وساعدُه الأيمن سعيد بن جودى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوار جموع النصارى والمولدين ثأرًا لابن صقالة سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنَّى بهذه الوقعة سعيد بن جودى مفاخرا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورتى جيَّان وريَّة يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل إلبيرة، ولسعيد بن جودى فيها قصيدة

---

(١) المغرب ١/٤٤.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثائرين، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جيلين. والاستعارة واضحة.

(٣) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لابسا درع الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رءوس. الهبيد: الحنظل.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غِرَّة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمَّر العرب عليهم سعيد بن جودى، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يحرِّض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية[١] نُظم فيها شعر حماسى كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعَبْلى واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بنى خزيمة، ومن قول العبلى فى إحدى قصائده يهوِّن من العرب وجموعهم بغرناطة:

منـازلُهم منهم قفـارٌ بَـلاقِـعُ تجارى السَّفَا فيها الرِّياحُ الزعازعُ[٢]

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردَّ عليه الأسدى ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منـازلنـا معمـورةٌ لا بـلاقـعُ وَقْلَعُتنا حصنٌ من الضَّيْم مانعُ
ألا فائذنوا منها قريبا بوقعةٍ تشيبُ لها وِلْدانكم والمرَاضِعُ

وإتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقى فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله فى قرطبة، ومن مشهور قول العبلى فى تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصفتْ قناتُهمُ وذَلُّوا وزُعْزِعَ ركنُ عزِّهمُ الأذلُّ

وناقضه الأسدى بقصيدة طويلة يعيِّره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواءُ النَّصْر معقودٌ علينا بتـأييد الإلٰـهِ فمـا يُحَـلُّ

وللأسدى شعر كثير يحرِّض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين فى كورة إلبيرة حتى إذا خَلَفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية فى كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسالمة ومولدين.

---

(١) انظر فى أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٢) بلاقع: مقفرة. السفا: التراب.

ومن طريف ما يُرْوَى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠هـ) أن نزارًا الفاطمى الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) كتب إليه كتابا يسبُّه فيه ويهجوه، فرد عليه المستنصر المروانى: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدَّلتْ ... بنا الحال أوارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلد المولـودُ منا تهلَّلتْ ... له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابر»

فأفحمه[١] ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المروانى المسجون فى عهد المنصور بن أبى عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبى عامر[٢]:

رميتُ بنفسى هولَ كل عظيمةٍ ... وخاطرتُ والحرُّ الكريم يخاطِر
رفعنا المعالى بالعوالى بسالةً ... وأورثناها فى القديم مَعافِر[٣]

وحكاياته فى الجهاد كثيرة، ويقال إن له نَيِّفا وخمسين غزوة فى النصارى وإنه كان لا يخلّ فى أكثر أيامه بغزوتين فى السنة يشنُّها عليهم، ومَّر بنا فى الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد[٤]:

بالعلم يفخرُ يوم الحَفْل حاملُه ... وبالعفاف غداة الجمع يزدانُ
وما ألان قَناتى غَمْزُ حادثةٍ ... ولا استخفَّ بحلمى قَطُّ إنسانِ
أمضى على الهَوْل قدمًا لا يُنهْنهُنى ... وأنثنى لسفيهى وهْو غضبانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطَّوى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن[٥] حزم:

أنا الشمس فى جَوِّ العلوم منيرةً ... ولكنَّ عَيْبى أن مطلعىَ الغَرْبُ
ولو أننى من جانب الشرق طالعٌ ... لجدَّ على ما ضاع من ذكرىَ النّهْبُ

---

(١) انظر هذه الرواية فى النفح ٥٥٨/٣.
(٢) المغرب ٢٠٣/١.
(٣) العوالى: الرماح. ومعافر بفتح الميم: قبيلة ابن أبى عامر وهى يمنية.
(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكى (طبع القاهرة) ص ١٦٣.
(٥) الذخيرة ١٧٣/١.

وهو حقًا - كان شمسًا منيرة فى العلوم ولم يعبه طلوع شمسه من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضىء ما بينهما إلى اليوم، وسنفرد له حديثًا فى الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمايتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيليه[١]:

أقـومُ على الأيَّام خيـر مُقـام ... وأوقدُ فى الأعداءِ شرَّ ضِرَامِ
وأُنْفقُ فى كسب المحامد مُهجتِى ... ولو كان فى الذِّكرِ الجميلِ حِمامى
وأُبْلغ من دنياى نَفْسِىَ سُؤْلَها ... وأضربُ فى كل العلا بسهامى

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغا من دنياه كل ما يتمنى محققًا لنفسه كل ما يريد من المعالى والأمانى. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم فى نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول[٢] على بن أضحى الهمدانى الغرناطى المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نحن الأهلَّةُ فى ظلام الجِنْدسِ ... حيث احتللنا فَهْوَ صَدْرُ المجلسِ
إن يذهب الدَّهْرُ الخئونُ بعزِّنا ... ظلمًا فلم يذهب بعزِّ الأنفسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها توًّا محن الزمن دون أن تنال منها أى نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له فى مسقط رأسه بجزيرة شُقْر يعيشون للبأس والنجدة والنضال وخَوْض الدماء بخيلهم المحجَّلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تَذر، وفيها يقول[٣]:

مَضاءٌ كما سُلَّ الحُسام من الغِمْدِ ... وبأسٌ كما طار الشَّرارُ من الزَّنْدِ
تساقَوْا وما غيرُ النْجيعِ سُلافةً ... تدارُ ولا غيرُ الأسنة من وِرْد
وإنى على أن لست صَدْر قناتهم ... لِخدْنُ العُلا تِرْبُ النَّدَى لِدَةُ المجدِ
أخوضُ الظُّبا تخضرُّ فى النَّقْع بِيضُها ... فألْقَى المنـايا الحُمْرَ فى الحُللِ الرُّمْدِ

(١) الحلة السيراء (تحقيق د. مؤنس) ٤٤/٢.
(٢) مغرب ١٠٨/٢.
(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. – على عادة ابن خفاجة فى شعره – فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكأن سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التى يسفكونها من الأعداء ولا وِرْد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول – تواضعا – إنه ليس صَدْرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خدْن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الظُّبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكدْرة، وهو يندفع – مثلهم – إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التى تسحقهم سحقا.

وبهذه الروح العاتية التى لا تقهر، يقو ل الطبيب الشاطبى أبو عامر محمد بن يَنَّق[1] المتوفى فى آخر سنة ٥٤٧:

دَعْنِى أُصادِ زمانى فى تقلبُّهِ ... فهل سمعت بظلٍّ غير مُنْتقلِ
وكلما راح جَهْمًا رُحتُ مبتسمًا ... كالبَدْرِ يزداد إشراقا مع الطَّفَل
ولا يروعَنك إطْراقى لحادِثةٍ ... فالليثُ مكمنه فى الغِيلِ للغِيَلِ
وما تأطَّر عِطْفُ الرُّمحْ من خَوَرٍ ... فيه ولا احمرَّ صَفْحُ السيف من خَجل
لا غَرْوَ أنْ عُطِّلَتْ من حَلْيها هممى ... وهل يُعيَّر جِيدُ الظبَّى بالعَطَل

وهو يقول دعنى أصادى الزمان وأعارضه فى تقلباته بى وأحداثه معى، وهل سمعت بظل ثابت فى مكانه، ومهما تجهَّم لى ونظر إلىّ مكفهرَّ الوجه فسأظل مبتسما كالبدر يزداد إشراقا مع الطفل أو الظلام الداجى، وإذا رأيتنى مطرقا إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث فى غِيله للوثوب على فريسته، ومهما يصبنى من أحداث فلن تثنى إرادتى، وحتى إن ظُنَّ أنها تثنى فهو تثنى حد الرمح شديد المضاء،وسأظل قاطعًا نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن همى لأعظم من أن تتحلى بالرماح والسيوف، فهى أحد من أى سيف وأمضى من أى رمح، وإنها مجردة من تلك الحلى تجرد جيد الظبى رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعُجْب لا يماثله عجب بمروءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقى بسهل بن مالك الأزدى الغرناطى البارع فى العلوم القديمة والحديثة، وكانت

---

(١) مغرب ٣٨٨/٢ وانظر فى ترجمة ابن ينق ص ١٦٢ والخريدة ٤٦٣/٣ القلائد ٢١٢ والتكملة ص ١٩٨ ومعجم الصدفى

قد نالته محنة فى عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغُرِّب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد[١]:

وإنِّىَ من عـزمى وحـزمى وهمتّى ... ومارُزِقَتْهُ النفسُ من كرم الطَّبْعِ
لفى منصبٍ تعلو السمـاءَ سِماتُـهُ ... فتثبتُ نـورًا فى كواكبهـا السَّبع
تـدرَّعتُ بالصبـر الجميل وأجلبتْ ... صُروفُ الليالى كى تمزِّقَ لى دِرْعى[٢]
فمـا مـلأتْ قلبى ولا قبضتْ يـدى ... ولا نَحَتَتْ أصلى ولا هَصَرتْ فَرْعِى[٣]
فإنْ عرضتْ لى لا يفوه بها فمى ... وإن زَحَفتْ لى لا يضيق لها ذَرْعِى[٤]

ونفس سهل - حقًّا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوىَّ النفس أمام صروف الدهر وهمومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولابن[٥] جُزَىٍّ المار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥:

وكم من غادةٍ كالشمس تبدو ... فيسُلى حُسْنُهـا قلبَ الحـزينِ
غَضَضْتُ الطَّرْف عن نظرى إليها ... محـافـظةً على عِـرْضى ودِينى

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشارقة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر فى أشعارهم، وهم سعيد بن جودى وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد[٦] بن جودى السعدىّ

هو سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى من هوازن من جند

---

(١) الذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع فى ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدح المعلى ص ٦٠

(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبا، كناية عن تكاثرها

(٣) هصرت فرعى: كسرته، كناية عن أن صروف الليالى انزاحت عنه دون أن تنال منه.

(٤) الذرع: الطاقة.

(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.

(٦) انظر فى ترجمة سعيد بن جودى المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله (راجع الفهرس) والحميدى ص ٢١٣ والبغية ص ٢٩٤ والحلة السيراء لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضا فى ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس فى عهد الولاة، ولىَ جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوارَ بن حمدون المحاربى أمير عرب إلبيرة المنازعين للمولدين والمسالمة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب فى تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعرًا - أهم مساعد له فى حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثأر زعيم العرب قبله فى تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقالة، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قد طلبنا بِثَأْرِنا فقتلنا ... منكمُ كلَّ مارقٍ وعَنيدِ
قد قتلناكمُ بيحيى وما إنْ ... كان حكمُ الإلٰهِ بالمردودِ
فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوفٍ ... تتلظَّى عليكمُ كالوَقودِ
لم تزالوا تبغونها عِوَجًا حَتَّـ ... ـى وَرَدْتُمْ للموت شَرَّ وُرودِ

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقالة غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسالمة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثنى عشر ألفا، ويرميهم بقصيدة ملتهبة، يقول فيها:

لقيتم لنا مَلْمومَةً مُسْتَجِرَّةً ... تُجِيدُ ضِراب الهام تحت العَوامل[1]
وظلَّتْ سيوفُ الهند تَحْصُدُ جمعكم ... حصادَ زروعٍ أَيْنَعَتْ للمَناجل[2]
ولم يَبْق منكم غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ ... يُقاد أسيرًا موثَقًا فى السلاسل[3]
وآخر منكم هاربٌ قد تضايقتْ ... به الأرضُ يَعْدُو من جَوًى وبلابلِ[4]

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمَّر العرب مكانه فى زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم ذياد الأبطال سبع

---

(١) ملمومة: كتيبة. مستحرة من استحر القتل إذا اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح
(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها. وأينع الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة لحصد الزرع
(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.
(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلابل: وساوس.

سنوات طوال، مثيرا فيهم الحماسة والحميةَ لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمه فى تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا كمثل حَصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدِ[١]

وله مرثية فى بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن لقوا حتفهم فى تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها بشجاعته على شاكلة أبى دلف قائد المأمون فى غزلياته. وله فى جارية تسمى جيجان سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبدالله فى إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها يقول:

سَمْعِى أبَى أن يكون الروح فى بَدنى فاعتاض قلبىَ منه لوعةَ الحزَنِ
أعطيت جيجانَ روحى عن تذكرها هذا ولم أرها يوما ولم تزنى
فقل لجيجان يا سُؤْلى ويا أملى استوصِ خيرا بروح زال عن بدنِ[٢]
كأننى واسْمَها والدمع منسكبٌ من مقلتى راهبٌ صَلَّى إلى وَثَنِ

ومن عجب أن قُتل هذا الفارس البطل غيلةً بأيدى بعض أصحابه فى شهر ذى القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك[٣] بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رَزِين من أكابر جند البربر، وفى أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدتين بحسن سياسته وتدبيره. ومرَّ بنا أنه أول من أفرط فى ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار كانت أديبة تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف والخناجر المرهفة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعنى المسرح الذى كانت تغنى وترقص عليه

---

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع. الصعيد: وجه الأرض

(٢) حذف الياء فى «استوص» فى خطاب جيجان لضرورة الوزن.

(٣) انظر فى عبدالملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١ والخريدة ١٠٩/٣ ومابعدها والحلة السيراء ١٠٨/٢ والمغرب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب لابن عذارى ٣٠٩/٣ والمطرب ص٣٩.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفى هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعيا أن تتفتح فيها ملكته. وتوفى أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثا فى النَّدَى، وليثا فى العِدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان – مع شرفه وأدبه – متعسفا على الشعراء، متعسرا بمطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعوه فيجيبه، ويَرْمى ثُغْرَة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابنُ تاشفين وتوفى سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحبب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم فى مركب ولا ملبس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هى التى اضطرته إلى عدم الاتساع فى النوال على الشعراء لا عن شُحٍّ وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للجود فى بعض شعره قائلا:

اهدمْ بناءَ البخلِ وارْفُضْ لهُ ... مَنْ هَدم البخل بنى مَجْدَهُ
لا عاش إلا جائعًا نائِمًا ... مَنْ عاش فى أمواله وحده

وهو يدعو على البخيل الشحيح الذى يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم فى أمواله أن يعيش جائعا نائما أو ظامئا وبعبارة أخرى فقيرا بائسا. وكان موقفه كريما من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية – كما مرَّ بنا – فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصَّ ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلدانها الجنوبية، هى شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرا:

شَأَوْتُ آل رزين غيرَ محتفلٍ ... وهم – على ما علمتم – أفضلُ الأممِ
قومٌ إذا سُئلوا أَعْنَوْا وإنْ حَرَبُوا ... أَفْنَوْا وإنْ سوبقوا جازوا مَدَى الكرمِ (١)
جادوا فما يتعاطى جودَ أَنْمُلِهِم ... مَدُّ البحار ولا هَطَّالةُ الدِّيَمِ
وما ارتقيتُ إلى العَلْيا بلا سبب ... هيهاتَ هل أحدٌ يَسْعى بلا قَدَمِ
فمن يَرُمْ جاهدا إدراكَ منزلتى ... فَلْيَحْكنى فى النَّدَى والسَّيْفِ والقلم

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم –

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعدَّوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أنا مَلْكٌ تجمَّعتْ فيَّ خَمْسٌ كلُّها للأنـام مُحْيٍ مُمِيتُ
هى ذهنٌ وحكمـةٌ ومَضَاءٌ وكـلامٌ فى وقتهِ وسكـوتُ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغى الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهام المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذما شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم وثلبهم بينما هم فى الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبته وما تسلّه من ألحاظها بينما لا يخشى السيوف فى القتال ولا يرهبها، يقول:

إذا سلَّت الألحاظُ سَيْفًا خشيتهُ وفى الحرب لا أخْشَى ولا أتوقَّعُ

ولعل فى كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث[1]

حفيد الغنى بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بنى الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حَقَّقه الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف فى مقدمته التى سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرى فى نفحه - كما جاء فى مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهى ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت فى أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثانى، وله مراث فى بعض إخوته وأبنائه. وفى الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبى سعيد عثمان المرينى صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

---

(١) انظر فى ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنّون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره فى تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسى لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيرا به وتصفو بينهما العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف فى بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله فى قصيدة حماسية من قصائده:

راق الزمانُ وجاءنا ميقاتُهُ ... بالضَّحوة الغرَّاء من أيامهِ[1]
نأتمُّ فى حَرْب الصَّلِيب وحِزْبِهِ ... بِشَفيعِ كلِّ موحِّدٍ وإمامهِ
مستأصلى بِيَعَ العُداة مُهَتِّمي ... ما صان فيها الكفرُ من أصنامه[2]
والله جَلَّ جلالُه متكفِّلٌ ... بالنَّصْر والمعهودِ مِن إنْعامهِ

ويوسف يعلن أنه انتصر فى ضحوة أوضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى فى جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمما على استئصال بِيَعهم أو كنائسهم وتهتيم أو تهشيم أصنامهم مستعينا بعون الله فى نصره عليهم وسحقهم سحقا ذريعًا. وطبيعى أن يكتظ ديوان يوسف بحُمَم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمتْ نَصْرٌ بأنى كفيلُها ... إذا هاجت الهيجاءُ واحمرَّت الأرضُ[3]
أدافع عنهم بالصوارم والقَنا ... وأحمى حِماها أن يُنال لها عِرْضُ
بنا ساعةَ الهيجاء يَحْمَى وَطِيسُها ... وتُهْتك أستارُ البُغاة إذا انقضُّوا
إلى عِتْرة الأنصار تُعْزَى أُرومَتِى ... إلى معشرٍ فى الذِّكر حُبُّهُمُ فَرْضُ

وهو يقول إن بنى نصر من أسرته يعلمون بلاءه فى الحرب وأنه حين يحمى وَطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتا بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عبادة، ومعروف أن عداده فى السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

ألستُ سليلَ الصِّيدِ من آل حِمْيَرٍ ... وخيرِ ملوك الأرض قومًا ولا فَخْرُ[4]

---

(١) الضحوة: الضحى.
(٢) بيع: كنائس مهتمى: محطمى.
(٣) كفيل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احمرار الأرض: كناية عن كثرة الدماء.
(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصبٍ لنا العِزَّةُ القَعْسَاءُ والغُرَرُ الغُـرُّ[١]
لنا الهَضْبَةُ الشَّمَّاء ساميةُ الذُّرَى لنا الرَّاية الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ[٢]
مكارمُ أعْيَتْ كلَّ من رام حَصْرها وهيهاتَ ما للشُّهْب فى أفْقها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطَّوْل من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة فى السماء التى لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهى مكارم يعزّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم فى السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار فى الفخر والحماسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهى طبيعية ممن ينشأ مثله فى الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى، ومرَّ بنا - فى كتابنا عن العصر الجاهلى - أنه كان فى الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلُّونه كما يسلون سيوفهم فى حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة فى الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق فى العصر الأموى ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُمِّيت بالنقائض. وظل التهاجى مضطرما بين الشعراء فى العصر العباسى، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر فى الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفى مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائين المبكرين عبد الله[٣] بن الشِّمْر المتفنن فى العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان[٤] عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغلَّ ذلك يوما - وهو فى مجلس القضاء - فألقى بين البطاقات التى كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

---

(١) القعساء: الوطيدة. الغرر: الأعمال العظيمة. الغر: المشهورة.
(٢) الشماء: السامقة: يهفو: يخفق.
(٣) مرت مصادر ابن الشمر فى الحديث عن علوم الأوائل فى الفصل الثانى.
(٤) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت). ص ٦٥ - ٦٦.

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة فى يده أمر أن يُدْعَى له بمن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرَّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولها من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

يُخامرُ ما تنفكُّ تأتى بِفِضْحةٍ ... دعوتَ ابنَ مَتَّى والمسيحَ بنَ مَرْيَما
قَفاك قَفا جَحْشٍ ووجهُك مظلمٌ ... وعَقْلُك ما يَسْوَى من البَعْر دِرْهما

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن[١] بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعرًا رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقرّبه ويجزل له النوال، وأسرته النصارى فى إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوّه شامتا به فى قصيدة طويلة:

تصبَّحْ أبا حفصٍ على أَسْرِ هاشمٍ ... ثلاثَ زُجاجاتٍ وخمسَ رَوَاطِم[٢]
وبُحْ بالذى قد كنت تُخْفيه خِفْيَةً ... فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمِ

وافتدى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حبائل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفى سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين فى عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلفاط[٣] محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسلّ لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

ما يَرْتَجِى العاقلُ فى مُـدَّةٍ ... أَلرِّجْلُ فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجَّس منه شرا، وتهاجيا وأقذع كل منهما فى هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

---

(١) انظر فى ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس فى مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية الملتمس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر فى الأندلس.

(٣) انظر فى القلفاط وشعره الزبيدى ٣٠١ والحميدى ٩١ وبغية الملتمس ١٣٤ والمغرب ١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباه الرواة ٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد فى ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادى: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله فى طفل حلق أهله شَعْره خوفا عليه من الحسد[١]:

حلقوا رأسَهُ ليكسوه قُبْحا ... خيفةً منهمُ عليه وشُحَّا
كان قبل الحِلاقِ ليلًا وصُبْحا ... فمحَوْا ليله وأبقوه صُبْحا

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُنى فى الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون بابا سواه وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب[٢] الملقب بالحجَّام شاعر قلعة رباح غربى طليطلة وقد سقطت فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو علية القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التى تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناسِ أكثرهُم فسادا ... وليس لهم لصالحةٍ نهوضُ
ألم تَرَ فى سباع الطير سِرًّا ... تسالمنا ويؤذينا البَعُوضُ

وقوله:

فيا للمَلْك ليس يَرَى مكاني ... وقد كُحِلتْ لواحظُه بنورى
كذا المِسْوَاكُ مطَّرَحًا هوانًا ... وقد أبقى جِلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيرا، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشىء من الاستطالة مع الإقلال والجدب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالا وإجدابا، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر[٣] الأصيلى، وهو كثير الذم والهجاء للناس

---

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨. ورايات المبرزين ص ٨٢.
(٢) راجع فى أبى تمام غالب الحجام وشعره الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢
(٣) انظر فى أبى عامر الأصيلى وشعره الذخيرة ٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والخريدة ٣٠٨/٢.

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعْتمرون دورًا ... ومالى فى بلادِ الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رِعاعًا ... كبارُهمُ إذ اخْتُبروا صغارُ

ونشبت لعهد أمراء الطوائف أكبر[١] معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة إلبيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتبا له يهوديا يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقَّب بابن النَّغْرِيلَّه، وكان داهية خبيثا درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة٤٦٧ وفى عهده أصبح ابن النغريلة رئيس وزرائه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالغ باديس فى الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حاميا لليهود فى الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدرى شيئا من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجا من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن فى أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعدَّ ابنه يوسف ليخلفه فى وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وأبو الحسن يوسف بن الجد القائل فى سخط وغضب[٢]:

تحكَّمتِ اليهودُ على الفُروجِ ... وتاهتْ بالبِغالِ وبالسُّروجِ
وقامتْ دولةُ الأَنْذال فينا ... وصار الحكمُ فينا للعُلوج[٣]
فقل للأعور الدَّجَّالِ هذا ... زمانُك إن عزمتَ على الخروج

---

(١) انظر فى هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٧٦٦/٢ وما بعدها وانظر المغرب ١١٤/٢ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٢٦٤/٣ والإحاطة ٤٣٩/١ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة الرد على ابن النغريلة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٥٦٢/٢

(٣) العلوج: جمع علج: الفظ.

وأصبح المسلمون فى غرناطة، يموجون بالحنق والغيظ من يوسف واليهود الذين اعتصروا طيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيرى الذى سنترجم له بين الزهاد يمدهم بقصيدة حماسية ملتهبة، بل بالشعلة الشعرية المضطرمة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف فى مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين[١]:

ألا قُلْ لصَنْهاجَةٍ أجمعينْ ... بدورِ النَّدِيِّ وأُسْدِ العَرِينْ[٢]
لقد زلَّ سَيِّدُكم زَلَّةً ... تَقَرُّ بها أَعْيُنُ الشامتينْ
تخيَّر كاتبَه كافرًا ... ولو شاءَ كان من المسلمين
فعزَّ اليهودُ به وانْتَخَوْا ... وتاهوا وكانوا من الأَرْذلينْ[٣]
ونالوا مناهم وجازوا المَدى ... فحانَ الهلاكُ وما يَشْعُرون

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يبقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوَّالين يحملون أخراجهم على ظهورهم فى صغار وذل وهوان باحثين فى المزابل عن خرق من الثياب ملوَّثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنيا حتى يتنبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فبادِرْ إلى ذَبْحهِ قُرْبةً ... وضَحِّ به فَهْو كَبْشٌ ثمينْ
ولا تحسَبَنْ قتلهم غَدْرةً ... بل الغَدْرُ فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عَهْدَنا عندهم ... فكيف تُلام على الناكثين

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها فى الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صمادح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا فى أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفى مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسوَّر كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

---

(١) ديوان الإلبيرى (طبع مدريد) ص ١٥١.
(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد ومأواه.
(٣) انتخوا: تعاظموا وتكبروا.

لهم جليّة نواياه مصممين على قتله، فاختبأ منهم فى بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين فى عصر المرابطين عبد الله[١] بن سارة الشنترينى المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تُرْبِى على حَصَى الدَّهْناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذى اتخذه فى الذخيرة، وهو أن ينحىّ عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقترًا عليه فى الرزق، فتنقل طويلا فى بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوِراقة، وفيها يقول ذامًّا هاجيا:

أما الوِراقَةُ فَهْىَ أَنْكَدُ حِرْفةٍ ... أغصانها وثمارُها الحِرْمانُ
شبَّهتُ صاحبها بإبرة خائطٍ ... تكسو العُراةَ وجِسْمُها عريانُ

ويكثر فى زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجيا، ومثله ابن خفاجة وابن البَنّى وفيهم يقول مخاطبا لهم:

أهلَ الرِّياءِ لبستُم ناموسَكم ... كالذئب أَدْلَجَ فى الظلام العاتمِ
فملكتُمُ الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسَمتُمُ الأموالَ بابن القاسمِ
وركبتُمُ شُهْبَ الدوابِّ بأشهبٍ ... وبأَصْبغٍ صُبغتْ لكمْ فى العالَمِ

وهو يتهمهم بالمراءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمته المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. وممن عنف بالفقهاء فى الهجاء الأبيض[٢] محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالة جاهدا ... ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النَّارِ
مازال يأخذ سَجْدَةً فى سجدةٍ ... بين الكُئوسِ ونَغْمة الأوْتارِ

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والخريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والبغية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

(٢) راجع فى ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفح الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

فإذا اعتراه السَّهْوُ سَبَّح خلْفه صوتُ القِيان ورَنَّةُ المزمارِ

وكانت فى الأبيض جرأة شديدة، وأفحش فى بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرِّعه ويوجعه باللوم قال له هازئا به: إننى لم أر أحق بالهجو منك ولو علمتَ ما أنت عليه من المخازى لهجوتَ نفسك إنصافا ولم تَكِلها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حمق منه ما بعده حمق. وكان معاصره اليَكِّى يهجو المرابطين مثله، غير انه لم يبلغ مبلغه فى الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة فى مهنة الطب كما يقول المقرى - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن[1] باجة:

يا ملكَ الموت وابنَ زُهْرٍ جاوزتما الحدَّ والنهايَهْ
ترفَّقا بالوَرَى قليلاً فى واحدٍ منكما الكِفايَهْ

وهى فى رأينا دعابة ومازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرى، مما جعله يعقِّب لأبى العلاء بن زهر ببيتين يصف فيهما شخصا بالزندقة وأنه لابد أن يصلب والجذع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا فى عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى[2] المخزومى أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سعيد فى المغرب هجاء كثيرا، من ذلك قوله فى إحدى مقطوعاته يهجو قوما لقوه لقاء قبيحا:

وأنتم سَنَنْتُمْ كلَّ مُحْدَثِ سُبَّةٍ ولم تتركوا فيها لحَاقًا لآخرِ

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبَّة وكل مذمَّة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءًا وعارًا بلعنات كل من فى المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون[3] - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلا:

ألا قُلْ لنَزْهونةٍ مالها تجرُّ من التِّيهِ أذْيالَها

---

(١) نفح ٤٣٤/٣ وما بعدها.
(٢) انظر فى ترجمة الأعمى المخزومى وشعره المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.
(٣) تأتى فى الفصل التالى مراجع نزهون.

فردَّت عليه بهجاء موجع أخرسه. وكما هجا تلميذته التى كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابنًا له بقوله:

الحقُّ أبلجُ لستَ أنت وحقِّ مَنْ ... أَحْيا بك الأَجْلافَ مِمَّنْ يُفْلِحُ[1]
لا تهتدى بفضيلةٍ لا تَرْعَوِى ... بمــلامـةٍ لا أنت ممن يَصْلح
يزدادُ عقلك ما كَبِرْتَ تناقصا ... وتَلجُّ فى صَمَمٍ إذا ما تُنْصَحُ[2]

وبدلا من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه فى مطلع ترجمته نقلا عن الحجارى: «بشار الأندلس انطباعا ولسنا وأذاة، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمُقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبرُّه ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله فى دار تلطفا، وقال لغلام له: اسأل فى الموضع الذى نزل فيه المخزومى متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له فى دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومى فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتا منها:

لا ترجونَّ بنى سعيدٍ للنَّدَى ... فـالظلُّ أَفْيَـدُ منهمُ للسائـلِ
قـومٌ مصيبتهُم بـطلعـة وافـدٍ ... وسرورُهم أبدًا بخيبـةِ راحلِ

ومن كبار الهجائين فى عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد[3] بن الصفار الأعمى القرطبى المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازى كاتب أبى العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التى أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة فى مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجيا له بقوله:

وإن ينازعك فى المنصور ذو نسبٍ ... فنَجْلُ نوحٍ ثَوَى فى قِسْمة العَطَبِ
وإن يَقُلْ أنا عَمٌّ فـالجوابُ لـهُ ... عمُّ النبىِّ بـلا شَـكٍّ أبـو لَهبِ

(١) أبلج: مضيء.
(٢) تلج: تتمادى.
(٣) انظر فى ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره المغرب ١١٧/١ واختصار القدح المعلى ص٢٠٣ والتكملة ص٣١٣.

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرَّض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبى زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتبا شهريا إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر الهجاء يتطاير فى إمارة بنى الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البَسْطى محمد بن عبد الكريم القيسى بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيرا من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضى بلدته[1]:

تبًّا لقاضى بسطةَ ابنِ مفضَّلٍ تَبًّا له فيه يروح ويَغْتدى
إذ غيَّر الأحكام عما أُصِّلتْ تغيير جبَّارٍ عنيدٍ مُعْتدى

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء أربعة من كبار الهجائين فى الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُّمَيْسر واليكّى وعلى بن حَزْمون.

يحيى[2] الغزال

هو يحيى بن الحكم البكرى الجيَّانى المعروف باسم الغزال، وُلد حوالى سنة ١٥٦ للهجرة وتوفى حوالى سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره فى أرجوزته التاريخية من قوله:

أدركتُ بالمِصْرِ ملوكًا أربَعَهْ وخامسًا هذا الذى نحن معَهْ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشامٍ وحفيده الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِّب بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدبا وعلما. ويبدو أنه كان يتولى أحيانا بعض أعمال للدولة وخاصة فى زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع فى بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشترى

(١) انظر كتاب البسطى آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت) ص ١٩٤.

(٢) راجع فى ترجمة يحيى الغزال المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣، ٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدى رقم ٨٨٧ والبغية للضبى رقم ١٤٦٧ والمغرب ٥٧/٢ والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذارى ٩٣/٢ والنفح ٢٥٤/٢ واليتيمة للثعالبى ٥٦/٢ وكتاب القضاة للخشنى ص ٨٣. ونشر ديوانه د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربى الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح فى السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش فى غير قليل من لين العيش وأنه كان فى أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب فى أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أَرَى هاهنا من الناسِ إلا ثَعْلبًا يطلبُ الدَّجاجَ وذِيبا
أو شبيهاً بالقِطِّ ألقى بعينيـ ـه إلى فَأْرَةٍ يريدُ الوثوبا

فالناس بين ثعلب ماكر وذئب مفترس وقطٍّ ينتظر فرصة من فأرة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يُخامر بن عثمان الجذامى الجيانى مواطنه، ولاّه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله فى شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كُلِّف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ لـه كلَّفتنى غيـرَ صَنْعتى كما قلَّدوا فَضْلَ القضاء يُخامـرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لى سأفضحُ ما قد كـان منِك مُغـايرا
فقلت لـه: رأسُ الفُضُوح إقـامةٌ علينا كذا من غَيْر عِلْمٍ مُكابرا
وخَبْطُك فى دين الإله على عَمىً خِبـاطـةَ سكـرانٍ تكلَّم سَـادِرا[1]
فلن يَحْمل الصَّخْرَ الذُّبابُ ولن ترى الـ ـسَّلاحِفَ يُزْجِينَ السَّفين مَوَاخِرا[2]

(١) سادرا: غير مبال.
(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخبط فى قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله فى حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التى لا يؤتاها إلا أولو العزم بذباب يُطْلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهوِّن منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلى الخصىّ تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذى الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدَّمت يداه:

أيا لا هيًا فى القَصْر قُرْبَ المقابرِ ... يَرِى كلَّ يومٍ واردًا غير صادرِ
تراهم فتَلْهُو بالشَّراب وبعضِ ما ... تَلَذُّ به من نَقْرِ تلك المَزَاهرِ[1]
ستـرحلُ عن هـذا وإنك قـادمٌ ... – وما أنت فى شَكٍّ – على غير غافرِ

وكان الأمير عبد الرحمن ولَّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ فى سنة ٢٣٦ يفكر فى صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه فى اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونُبِّه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة فى معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقِّبا له بأبى الفتح ومتشفياً فيه من قصيدة طويلة:

أَغْنَى أبا الفتح عما كانَ يأْمُلُهُ ... حُفَيْـرَةٌ حُفِرَتْ بين المقـابيـرِ
فصار فيها كأشقى العالمين وإنْ ... لَفُّوه بالنَّفْح فى مِسْكٍ وكافورِ

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه فى قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفنه أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجع فى زمنه.

---

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

السُّمَيْسِر[١]

هو خلف بن فرج الإلبيرى، من أعلام الشعراء فى زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقدح، وكأنما تخصص بالقدح والهجو فى أهل زمنه، حتى ليكتب فى هجائهم كتابا فى مجلدات سماه «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجى منذ سنة ٤٦٧ وكان السميسر ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين فى ملاهيهم بين الكاس والطاس متنابذين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكَ وقل لهم ... ماذا الذى أحدثتمُ
أسلمتُمُ الإسلام فى ... أَسْرِ العِدا وقَعَدْتُمُ
وجَبَ القيامُ عليكمُ ... إذْ بالنَّصَارى قمتمُ
لا تنكروا شَقَّ العَصَا ... فعَصَا النبىِّ شَقَقْتُمُ

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم فى يده، بل إنهم ليَسْتَعْدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير فى حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمير غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادى، فعبد الله بن بلقين غارق فى تشييد قلعة يتحصَّن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يَبْنِى على نفسه سَفاهًا ... كأنه دودةُ الحريرِ

فهو - فى رأيه - كدودة القَزِّ لاتزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقالا تلفّه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمير وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

---

(١) انظر فى ترجمة السميسر وشعره الذخيرة ٨٨٢/١ وما بعدها، ونفح الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١، ٤١٢، ١٠٨/٤ والحميدى ص ١٩٣ والخريدة ١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب ١٠٠/٢

رأيتُ آدم فى نَوْمى فقلتُ له أبا البريّة إنَّ الناسَ قد حكموا
أنَّ البرابرَ نَسْلٌ منك قال إذنْ حوَّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعده الأمير عبد الله بسَفْك دمه، ففر إلى المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السميسر سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رأيتُ بنى آدمٍ ليس فى جموعهمُ منه إلا الصُّوَرْ
ولما رأيتُ جميعَ الأنامِ كذلك صِرْتُ كطيرٍ حَذِرْ
فمهما بدا منهمُ واحدٌ أقولُ أعوذُ بربِّ البَشَرْ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لايزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع فى شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيذ منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أنا أحبّ الشعرَ لكننى أُبْغِضُ أهلَ الشعر بالفِطْرَهْ
فلستَ تلقى رجلا شاعرًا إلا وفيه خَلَّةٌ تُكْرَهْ
والعُجْبُ والنَّوْكُ إلى الجهل فى أكثرهم إلا مَعَ النُّدْرَهْ

وطبيعى أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ فى وصمهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة فى الزهد والقناعة والحياة والموت.

اليَكّى[1]

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكى من قرية يكَّة شمالى مُرْسِيَة، قال فيه الحجارى: «هو ابن رومى عصرنا وحُطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا فى الهجاء، ولا تنشط به فى غير ذلك من الأنحاء» عاش فى زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفى حوالى سنة ٥٦٠

---

(١) انظر فى ترجمة اليكى وشعره زاد المسافر ٥٨٠/٣ والضبى فى البغية ص ١٨٨. لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢٦٦/٢ والخريدة

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا الملثمين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لمَّا حَوَوْا إحرازَ كلِّ فضيلةٍ غَلب الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا

فى مدحة بلغ بها غاية رضاهم، ثم عاد إليه طبعه وما فُطر عليه من الهجاء المقذع، فهجاهم وقدح فى أخلاقهم ولثامهم راميا لهم بالدناءة ونقص العفاف قائلا:

فى كلِّ مَنْ ربط اللِّثامَ دَناءةً ولو أنه يَعْلُو على كَيْوانِ[1]
لا تطلبَّن مُرابِطًا ذا عفَّةٍ واطلبْ شعاعَ النار فى الغُدْرانِ

وفى نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسى - كأندلسى - أن الملثمين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها فى براثن النصارى الشماليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلَّاقة التى سحقوهم فيها سحقا ببعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

يا أهلَ فاسٍ لقد ساءتْ ضمائرُكم فأصبحتْ فيكمُ الآراءُ متَّفقه
وربما اجتمعتْ فى بَعْضِ سادتكم نقائصٌ أصبحتْ فى الناس مُفْترقه

ويتمادى فى البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصالٍ عشرة ذميمة للفقيه وزوجته، وما وصم به قاضى بلدته: مرسية من جَوْره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يطالبه الأَيْتَامُ فى جُلِّ مالهم ويطلبه فى حقِّه كلُّ مسجدِ[2]

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدَّرْك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر فى شىء، إذ يصبح سَبًّا وقذفا مذموما. وربما كان أخفَّ ما هجا به أهل فاس قوله:

قصدتُ جِلَّةَ فاسٍ أسترزقُ الله فيهمْ[3]
فما تيسَّر منهم دفعتُه لبنِيهِم

---

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس وشؤم.
(٢) جل: معظم.
(٣) جِلَّة: أجلاء.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئا من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله فى بعض مهجوّيه:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقتَ بهِ متذكِّرًا من قبلِ أن تنْسَى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظِّلُّ منه ينجِّس الشَّمْسَا

وكأنه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو فى الإقذاع والإيلام. وفى أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد فى المغرب فى نسبة موشح له وقال إنه لابن المرينى ويروى لليكى مما يدل على أنه شارك فى نظم الموشحات.

على[1] بن حَزْمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المَرِيَّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان شاعرا مفلقا ذاكرا للآداب والتواريخ أحد بواقع[2] الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجى». ومر بنا فى حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدى بعد قفوله من غزوة الأرَك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشى أنه وفد على المستنصر الموحدى (٦١٠ - ٦٢٠هـ) بمراكش مادحا له ومتظلما من واليه المجريطى على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نُسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالى وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفى المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالى واشتدَّ أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها فى غير هذا الموضع، وجرَّه هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعما أنه فرَّ فى إحدى المواقع مع النصارى قائلا:

يودُّ بأن لو كان فى بَطْنِ أمِّهِ جَنِينًا ولم يسمع حديثًا عن الغَزْوِ

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب ٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

ثقيـلٌ ولكنْ عقلُه مثلُ ريشـةٍ تطيرُ بها الأَرْوَاحُ فى مَهْمَهٍ دَوٍّ[١]
تميل بشِدْقَيْه إلى الأرض لِحْيَةٌ تظنُّ بها ماءً يفرِّغ من دَلْوِ
وقد حدَّثوا عنه بكـلِّ نقيصةٍ ولكنَّ مثلى لا يروِّى ولا يَرْوِى

وهو تجنٍّ على هذا القائد الذى كان مشهورا فى قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو برىء منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التى لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهى مبالغة فى هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبى سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقيل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نعوذُ بالله من وَجْدٍ ومن بَيْنٍ ومن وقوفٍ على دارٍ ببابين
ومن زيـارةِ أرْبابٍ بـلا عَدَدٍ لا يملكون حياتى لا ولا حَيْنِي[٢]
إنى وجـدتهمُ لمـا رَجَـوْتُهُم كالرِّيحِ تطلبهـا ما بين كَفَّيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبا وغيثا مدرارا وممدَّحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء فى ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصَّ منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تأمَّلتُ فى المرآة وَجْهى فخِلْتُـهُ كوجه عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللَّهْوِ
إذا شئتَ أنْ تهجو تأمَّلْ خَلِيقَتِي فإنَّ بها ما قد أردتَ من الهَجْوِ
كـأنَّ على الأَزْرار منىَ عَـوْرَةً تنادى الوَرَى غُضُّوا ولا تنظروا نَحْوِى
فلو كنتُ مما تنبتُ الأرضُ لم أكُنْ من الرَّائقِ الباهى ولا الطيِّبِ الحُلْوِ

وفى الحق أنه كانت فى ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هى التى دفعته إلى أن يسلك طريقة إبن حجاج البغدادى الماجنة المفحشة فى كثير من شعره، وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم فى عروضها ورويها موشحة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. وينهى المراكشى حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذىء المقذع.

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوٍّ: واسع. (٢) حينى: هلاكى وموتى.

٥

الشعراء والشعر التعليمى

ذكرنا فى كتاب العصر[١] العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فى هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمى، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة فى هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة فى تاريخ ملوك الفرس وفى الفقه وأحكام الصوم والزكاة. وممن نظم فى هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزارى، إذ نظم فى علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعى فيه قصيدة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم فى هذا الفن التعليمى، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعلى بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين فى هذا الفن الجديد – إن لم يكن أولهم السابق إليه – الشاعر يحيى الغزال الذى مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم فى فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب فى غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماءهم مستقصيا محسنا[٢]. ونلتقى بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفى فى حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٣]، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخم[٤] وفى ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة فى الطول.

---

(١) العصر العباسى الأول ص ١٩٠ وما بعدها
(٢) نفح الطيب ٢٨٢/١.
(٣) الحلة السيراء تحقيق د . حسين مؤنس (طبع القاهرة) ١٤٤/١.
(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار الكتاب العربى بلبنان) ص ١٧٩.

وإذا استمررنا فى تتبع الشعر التاريخى التعليمى وأراجيزه التقينا بأرجوزة[١] ابن عبد ربه التى سجَّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهى فى نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لم تَحْوِهِ أقطارُ ولم تكنْ تدركُه الأبصارُ
ومَنْ عَنَتْ لوجهه الوجوهُ فما له نِدٌّ ولا شَبِيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التى أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حَبَّاته قد تناثرت وعمَّت الفتن فى كل الأنحاء وكثر الثوار فى كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرَّاق ويأخذ فى منازلة نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدٍ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة[٢] السنة الأولى من غزوات الناصر وهى سنة ثلاثمائة، وكان قد أعدَّ جيشا ضخما خرج به من قرطبة فى السابع من شهر رمضان فى تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيَّان واتجه إلى حصن المُنْتِلون وثائره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمنتان وثائره عبيدالله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التى كانت موالية لعمر بن حفصون فى جيَّان ثم فى البُشَرَّات وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون فى إقليم إلبيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعاقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهى فتوح لم يسمع بمثلها – كما يقول ابن حيان – لملك واحد من ملوك الأرض فى غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه فى أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خانعين:

وجَمَّعَ العُدَّةَ والعَديدا وكَتَّف الأجنادَ والحُشودا
ثم انْتَحَى جَيَّانَ فى غَزاتِهِ بِعَسْكر يَسْعَرُ من حُماتهِ[٣]

---

(١) انظر الأرجوزة فى العقد الفريد ٤/٥٠٠ وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة فى الجزء الخامس من المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسعر: يتقد. حماة: جمع حام.

فأذعنتْ مُرَّاقُها سِراعا وأقبلَتْ حُصونها تَداعى
وافتتح الحصونَ حِصْنًا حِصْنا وأوسع الناسَ جميعًا أَمْنَا
ثم انتحى من فَوْرِه إلبيره وهْيَ بكل آفةٍ مَشْهوره
ولم يَدَعْ من جِنها مَريدا[1] بها ولا من إنسها عَنِيدا
إلا كساهُ الذُّلَّ والصَّغَارا وعَمَّه وأهلَه دمارا
وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ وقد شفاه الله من عُدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التى ينبغى أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التى ليس لها مثيل فى تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت فى أرجوزة من الشعر التاريخى التعليمى الذى تفتر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائى المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة فى الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل فى نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله فى مدحه للناصر[2]:

فى نصف شَهْرٍ تركتَ الأرض ساكنةً من بعد ما كان فيها الجَوْرُ قد ماجا
لما رأوا حَوْمَةَ الشَّاهين فوقهمُ كانوا بُغَاثًا حواليها ودُرَّاجا[3]

ويقول فى وصف عدله فى رعيته:

أحيا لنا العدلَ بعد مِيتَتِهِ وردَّ روح الحياة فى جَسَدِهْ

ونلتقى فى عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمى التاريخى، ونقصد أباطالب عبدالجبار الملقب بالمتنبى، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبى الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده فى هذا اللون التاريخى من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذى ستأتى ترجمته فى الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها «رَقْم الحلل فى نظم الدول» وهى تاريخ شعرى للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمراء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضى، ويسوق ابن الخطيب فى تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفى كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضى وما كان

---

(١) مريدا: خبيثا شريرا.
(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص٦٢.
(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البغاث والدراج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

من ثورة الفقهاء وأهل الربض عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه فى حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد فى الثورة عليه عهدا ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيرا إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام[١]:

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما ... قام بها ابنُه المسمَّى الحكَما
واستشعرَ الثورة فيها وانقبضْ ... مستوحشا كاللَّيْث أَقْعَى وَرَبَضْ[٢]
حتى إذا فُرْصَتُه لاحتْ نَفَضْ ... فأفحشَ الوقعةَ فى أهل الرَّبَضْ
وكان جبَّارا بعيدَ الهمةِ ... لم يَرْعَ من إلٍّ بها أو ذِمَّة[٣]

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمى إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهى أكثر من أن تحصى فى الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علما دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها فى العالم العربى وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة فى العلم الذى نظمته مهما شرقنا أو غربنا فى البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بن فِيرُّه الشاطبى الذى مر ذكره بين القرَّاء فى الفصل الثانى، وقد سماها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدَّتها -كمامرَّ بنا فى غير هذا الموضع- ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وقد شرحت مرارا، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبى إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سماها: «عقد اللآلى فى القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها[٤] من الشهرة والذيوع. ودوَّت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكى لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس فى الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطَّأ لمالك وسّماه: «التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا» ولعل ذلك ما جعل الشاطبى ينظم قصيدة فى

---

(١) الإحاطة ٤٨٢/١

(٢) الليث: الأسد. أقعى: جلس على إليتيه ونصب ساقيه وفخذيه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

(٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٧٣/٥.

خمسمائة بيت تحيط علما بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات فى العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبى بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله فى القراءات[١] منظومة باسم «إيضاح المعانى فى القراءات الثمانى» ومنظومة ثانية فى علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض فى علم الفرائض» ومنظومة ثالثة فى علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله فى الفقه المالكى أرجوزة فى نحو ١٦٩٠ بيتا نشرت فى باريس منذ القرن الماضى وكانت تدرس فى جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيرا ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد فى رائية[٢] أبى الحسن بن الحصار، وهى اثنان وعشرون بيتا فى بيان المدنى والمكى من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبيعيا أن تشارك الأندلس المشرق فى نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينها فى كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسِّنا وضم إليها صور البيان الأساسية وهى الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسِّنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبى الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسنا. وتأخذ فى الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات[٣]، وهى منظومات يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط فى ١٤٥ بيتا موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسنا من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطى ينظم قصيدة فى علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلى والإربلى فى أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم فى تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

---

(١) انظر فى أسماء هذه المنظومات لابن عاصم النفح ١٩/٥.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم الأول من السفر الثامن ص٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص٣٥٨ وما بعدها.

فى مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم وسماها: «الحلة السِّيرَا فى مدح خير الورى» واستهلَّها بقوله:

بِـطَيْبَـة انْـزِلْ ويَمِّمْ سيِّـد الأممِ وانْثُـرْ له المـدحَ وانْشُـرْ أطيبَ الكَلِمِ[1]

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعينى، ويقول فى مقدمته لها إن ابن جابر اتبع فى سرد المحسنات البديعية الخطيب القزوينى فى كتابيه الإيضاح والتلخيص، ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم فى علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائى الجيَّانى المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق، ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا فى الأندلس فحسب بل فى العالم العربى جميعه، وكان نظم الشعر التعليمى سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق الدقائق فى النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة صياغة بديعة، وفى مقدمتها نظمه المفصل للزمخشرى فى النحو باسم «المؤصَّل فى نظم المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» فى النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله فى الصرف منظومة لامية فى أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهى فى مائة وأربعة عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية فى ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطى فى الجزء الثانى من كتابه المزهر. وله فى اللغة منظومة واوية فى ١٦٢ بيتا سماها «تحفة المودود فى المقصور والممدود» وهى تتضمن الألفاظ التى تنتهى بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت فى القاهرة مع شرح موجز لها، ومنظومة ثانية فى ٦٢ بيتا من وزن البسيط سماها: «الاعتداد فى الفرق بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتماثلة التى تنتهى بهما. وأهم منظوماته جميعا الألفية فى النحو والصرف وهى أرجوزة فى ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارسة وإكباب الشيوخ والطلاب عليها فى جميع البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى فى النحو والصرف واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وحواشيها مثل شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضرى عليه. ولحازم القرطاجنى المتوفى سنة ٦٨٤

---

(١) طيبة: المدينة. يمم: اقصد.

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها فى حديثنا عنه عما قليل، ولأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة فى النحو سماها «غاية[١] الإغراب فى علمى التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ-كأرجوزته فى القراءات-بشىء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التى نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر فى كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح ثعلب فى اللغة.

وكان قد شاع نمط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدبين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دُرَيْد فى القرن الرابع بمقصورته التى تقع فى نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتى مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال والى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء فى المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلى فى عناية الشعراء بها وفى تخميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته فى هذا اللون من الشعر التعليمى اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومى، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة[٢] عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة[٣] جعلها فى ثلاثة أقسام: الأول فى الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثانى فى الحديث النبوى: بُنى الإسلام على خمس، والثالث فى الشكوى من الزمان والإخوان ورثاء أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها فى حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرى فى النفح[٤] مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى فى أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التى شاعت فى قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

---

(١) ذكرها أبو حيان فى كتابه منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك ص٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص١٠٧.

(٤) راجع نفح الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة فى سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بمعراجه إلى السماء وقُرْب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ فى قوافى أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبى طالب عبد الجبار وحازم القرطاجنى بكلمة.

أبو[1] طالب عبد الجبار

لم تُعْنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبى طالب عبد الجبار، وحقا عُنى ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة فى مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعْرَف بلقب المتنبى، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا فى العلوم، وأوسعهم ذَرْعا (طاقة) بالإجادة فى المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف فى المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا فى الفصل التالى، ويقول إنه كان قانعا بما يسدّ حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاة دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التى عاش فيها، غير أنه أرخ فى أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وانه يقتفيه ويهتدى به فى حكمه، مما جعل العماد الأصبهانى يستنتج فى ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أى بعد السنة الأولى من حكم على، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وهْوَ إلى الآنَ إمامُ الخَلْقِ والملكُ لله الإلٰـهِ الحقِّ

وفى قوله): «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة فى مدة حكمة، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

---

(١) انظر فى ترجمة أبى طالب عبد الجبار الذخيرة ٢/٢١٠ وما بعدها والمغرب ٢/٣٧١ وما بعدها. والخريدة للعماد الأصبهانى ١/٩١٦ - ٩٤٤

والأرجوزة فى أربعمائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع فى أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر فى فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدؤها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ فى حمد الله مبتدع السماء والأرض والبريَّة ابتداعَ خالق مهيمن منفرد بوحدانيته منزَّه عن قول جَهْم بن صَفْوان وغيره من المجسّمة، ويدعو إلى التأمل فى ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل فى خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما فى الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أُفٍّ لقـول الفِئـةِ البَصْـرِيَّـهْ ... أهلِ الهوى والفِرْقة الغَـويَّهْ
واحذَرْ هداك الله ياذا الفَهْم ... قـولَهُمُ واحـذرْ مقـالَ جَهْمِ
وقُـلْ بما يقـولُ أهلُ الحقِّ ... من مُثْبتى صفاتِ ربِّ الخلقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشتد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشتد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبى الحسن الأشعرى. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذى ينقله الجم الغفير عن الجم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سنى أو قل أشعرى، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وكلُّ شىء جَوْهَرٌ أو عَرَضُ ... إلا الذى الطَّوْعُ له مُفْتَرَضُ
فإن فحصتَ قائلا ما الجوهرُ ... ومـا هو العَـرَضُ إذ يُفَسَّـرُ
فالجوهرُ الحاملُ للأعـراض ... وَهْو الذى ليسَ بِذِى أَبْعاض
والعَرَضُ المحمول كالألوانِ ... وحـركاتِ الجِـرْم والإسْكان

فكل ما فى الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزَّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر - ويريد الجوهر الفرد - لا يتجزَّأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلابسه ملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة فى بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهوم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرِّفه بأنه معرفة الشىء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلمُ علمانِ أيا مَنْ يبحثُ ... علمٌ قديمٌ ثم علم مُحْدَثُ
إن القديمَ علمُ ربِّ العرشِ ... بارى البريَّة الشديدِ البَطْش
ومُحْدَثٌ فذاك علمُ الخَلْقِ ... من ناطقٍ وغير ما ذى نُطْقِ
وكل علمٍ محدثٍ عِلْمانِ ... علمٌ ضرورىٌّ بلا برهانِ
وبعده فعلمُ الاستدلالِ ... والمنطقُ الباحث عن أحوال

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاصٌّ بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضرورى بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلاً: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. ويَنْعَى على النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود فى الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جَلَّ جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث فى مقدمة رابعة عن التفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما فى الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعا يدبِّره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدلَّ ذلك على أن رَبًّا فوقه هو الكمال المطلق الذى ليس له نهاية تحدده. وفى مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتديًا بأضواء من الذكر الحكيم منشدا:

قد خلقَ اللّهُ السمواتِ العُلا ... كما عَنِ الرَّسولِ فى الذِّكْرِ تَلَا
أخرجَ من ماءٍ دُخانا فسَما ... ثم دَحَا الأرض ليَبْلُو الأُمَما
وآدمٌ صُوِّرَ من صَلْصالِ ... فكان منه جُمْلَةُ الأَنْسالِ
ثم بَرَا لآدمٍ حَوَّاءَ ... فسكنَا جنَّتَه العَلْياءَ

وهو يشير فى الأبيات إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من خلق السموات فى مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السماءُ بناها رفع سَمْكها فسوَّاها وأغطش (أظلم) ليلها وأخرج ضحاها﴾ وقوله عزَّ شأنه فى سورة فُصِّلت: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعا أو كَرْها قالتا أتينا طائعين﴾ وقوله سبحانه فى سورة النازعات: ﴿والأرضَ بعد ذلك دَحاها﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُوِّر من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى فى سورة الحِجْر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صَلْصال﴾ وقوله فى سورة الرحمن: ﴿خَلق الإنسان من صَلْصال كالفَخَّار﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنها الفردوس. ويستمر فى الأرجوزة متحدثا عن عصيانها لربها وأكلها من الشجرة وهبوطها للأرض ويتحدث عن قتل ابنها قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلها وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسالَ الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم فى القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دلَّ فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بنى أمية فى الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموى فى تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادا ... وعطَّلوا الثغورَ والجِهادا
واشتغلتْ أذهانهم بالخمرِ ... وبالأغانى وسماع الزَّمْرِ
وزادهم فى الجهل والخِذْلانِ ... أن ظاهروا عِصابة الصُّلْبانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، وداخلوا طوائف النصارى فى الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القِلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت فى كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقا وبيلا فى موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيها وفى استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذْ أراد اللّهُ نَصْـرَ الـدينِ ... اسْتَصْرَخَ الناسُ ابنَ تاشفينِ
فجاءهم كالصُّبْحِ فى إثْرِ غَسَقْ ... مستدركا لما تبقّى من رَمَقْ
وواصل السَّيْرَ إلى الـزلاَّقَـه ... وشـاقَـه ليـومهـا مـا شـاقــه
لله دَرُّ مِـثْلهـا مـن وَقْعَــهْ ... قامت بنصر الدين يومَ الجُمعه
وثُـلَّ للشِّرْك هنـاك عـرشُـه ... لم يُغْن عنـه قومَـه أذْفُنْشُه

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف فى الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك فى صدر سنة ٤٧٩ فلبَّاهم كالصُّبح المضىء فى إثر ظلام مطبق، مستدركا لما بقى فى الأندلس من رمق يوشك أن يزهق ونفَس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأُسْد وَغىً والنصر يحفّ بركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وثُلَّ عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة فى نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم فى اختيار الألفاظ والقوافى دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعانى أو تضفى عليها شيئا من الإبهام، وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبى طالب فى الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب فى الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم[1] القرطاجِّنى

مرَّ بنا فى الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعُنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشبَّ فأخذ يتلقى الآداب والعلوم فى بلدته الواقعة على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومدَّ رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

---

(١) انظر فى حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المعلى ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى مع تحقيقها» وجَمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

تلخيصه لكتابى الخطابة والشعر لأرسطاطاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحسَّ أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقرَّبه، وتوفى فقرَّ به منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطنا له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعا بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعُنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظا أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرْسَلٍ قِفانَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميميته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئا بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقا فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشدا:

لله ما قد هِجْتَ يا يومَ النَّوَى على فؤادى من تَباريح الجَوَى

ويطيل فى غزله إلى خمسين بيتا ناسجا فى أبياته أكثر المعانى التى ألمَّ بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير فى نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه فى مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ بهِ ... مؤيَّدٌ بعونهِ على العِدا
مُلْكٌ حكى مُلْكَ سليمانَ الذى ... لم يتَّجه لغيره ولا ابْتَغَى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنَّة الخُلْد كما يشبه قناتى المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هى نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل فى وصف جنات أبى فهر والقصبة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سماح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى فى دولةٍ ... أولتْ يَدِى أَسْنَى الأيادى واللُّهَا[1]
والدَّهْرُ عِيدٌ والليالى عُرُسٌ ... والدَّهْرُ أحلامٌ كأحلام الكَرَى[2]

وكأنما تَهيج تونس بمباهجها فى نفسه الذكرى لمرابع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك فى نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثا فى نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التى نهبها النصارى والتى كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصوِّرا كم نَعِم فيها مع خلَّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورُبى ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نَصيف من مُرْسيةٍ بمنزلٍ ... ضَفَا به الدَّوْحُ على ماءٍ صَفَا[3]
نقطع دُنْيانا بوَصْلِ الأنس فى ... مُغْتَبَقٍ فى رَوْضه ومُغْتَدَى[4]

---

(١) الأيادى: النعم. اللها: العطايا.
(٢) الكرى: النوم
(٣) نصيف: نقضى الصيف. ضفا الدوح: نما الشجر وكثر.
(٤) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى، مغتدى: مكان الغدوّ فى الصباح.

وتتنـاجى بـالمنى أنـفسُنـا حيث تداعى الطَّيْرُ منها وانتجى[١]
تقسَّم النـاسُ بها قسمين من بين خلىٍّ قلبـه ومُصْـطَبَى[٢]
إذا اجْتَنى زَهْرَ الجمال وامقٌ فيها اجْتَنَى خِلْوٌ بها زَهْرَ الرُّبَى[٣]
وكم أغـانٍ كنـظيم الـدُّرِّ فى تلك المغانى قد وَشَاها مَنْ وَشَى[٤]
وكم حديثٍ كنَثِير الـزَّهْر فى تلك المبانى قد حكاه مَنْ حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التى رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى فى أنس موصول، والناس قسمان محب وقع فى شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتنى المحبُّ أزهار حبه من النظر أو من القُبل يجتنى الخلىُّ من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم فى رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التى كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودَّع تلك الجنان ارتسمت فى خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه فى فُلْكها، متساقين فيها كئوس الأُنس فى حدائق،منتشين فيها بأكؤس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالا عن لوحة مرسية. ويطيل فى وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخِيرِىّ ونرجس وياسمين، ويصف كلَّ ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغانى الشعب: شعب بَوَّان التى تغنى بها المتنبى، ويدعولها بالسقيا ويندب جَدَّها العائر وما عفا فيها وفى أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذى ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمديح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث فى نحو مائتى بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقى فيها من المتاعب والمشاق التى احتملها فى جلد وصبر، ويفكر فى شئون الحياة وفى نفسه وخصاله وتسيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

---

(١) انتجى: تناجى.
(٢) خلىٌّ: خال من الحب. مصطبى: محب مغرم.
(٣) وامق: محب. خلو: خلىّ.
(٤) وشى: زين وزخرف.

ما أحدثتْ حادثةٌ لى روعةً ولا اعْتَرانى جَزَعٌ لما اعْتَرَى
والعيشُ طَوْرًا مُشْتَهىً مُسْتَمْرَأٌ وتارة مُسْتَوْبَلٌ ومُجْتَوَى
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرئٍ لا فرقَ بين الشيخِ فيه والفتى
قد يُدْرك الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ فى طِلابها وقد تفوت مَنْ سَعَى
إنَّ احتياطَ المرء فى أفعاله رأىٌ يؤدِّيه إلى سُبْل الهُدَى

ويطيل فى الكلام عمن ضلوا نهج الرشد فكان فى ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلى من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعا، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرتهم أن جيشًا قادمًا ولم يصدقوها فكان فى ذلك حتفهم، وقصة الزبَّاء فى حصنها وكانت أمنع من عُقاب فى أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذيمة ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدسَّ لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمرا فوثقت به ووعدها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالا فى جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهى تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولفتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديدا. ولم تتنبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروى الأسطورة العربية ليبيِّن ما حدث فيها من تغرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وئيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وغَرَّها جَدْعُ قَصيرٍ أَنْفَهُ فأَمِنَتْهُ وهْوَ مرهوبُ الشَّدَا[1]
وأَوْقَرَ العِيسَ رِجالاً وعَبَا بُؤْسًا لها وأَبْؤُسًا فيما عَبَا[2]
وارتابَ فى مَشْىِ الجمال لحظُها ولم تحقِّق عندما قالت: عَسَى[3]
وما درتْ ما فوقها حتى غدتْ مُقْصَدَةً بسهمِ دَهْىٍ ما خَبَا[4]

ويتحدثُ عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة فى الجاهلية، وينصح بالحزم فى الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عمن شبوا

---

(١) الشدا: الحدّ، شبه قصيرا بالسيف القاطع.
(٢) أوقر العيس: حمَّل الإبل. عبأ: هيأ.
(٣) قالت عسى أى أنها شكّت ولم تتحقق من شكها وريبتها ولا ظنت بعض الظنون.
(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس فى ثأر أبيه حُجْر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحَّاف وإيقاعه بتغلب فى معركة البِشْر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إنَّ ثَواءَ المَرْءِ فى أوطانهِ عِزٌّ وما الغُرْبَةُ إلا كالتَّوَى[١]

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنّوا إليها حنينا ملتاعا، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسدَّ مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبىّ الهدى الذى أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وبفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين فى موقعة الأرَك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للثوار، وعمَّ طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسانُ الحال تملى شجوها، وبكى كلُّ ما هنالك وبكت حتى الأنهار بمدمع هام وأنَّت الوديان وبثَّت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبَّات عقد فى حجور نصارى الشمال، واحتووا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من براثن الإسبان منشدا:

ولـو سَمـا خليفـةُ الله لهـا لافْتَكَّها بالسَّيْف منهم وافْتَـدَى
ففى ضمان سَعْدِه مِنْ فَتْحهـا دَيْنٌ على طَرْف العَوَالى يُقْتَضى[٢]
فقد أشادتْ أَلْسُنُ الحـال به حَيَّ على اسْتِفْتاحها حَيَّ على
أثْأَى العِدا ما كان مرءوبًا بها وهو الذى يُرْجَى به رأْبُ الثَّأى[٣]
مـا زال يُمْلِى المَلَوان نَصْـرَهُ وسَيْفُهُ يختطُّ ما يُمْلى المَلَا[٤]

ويمضى فى استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، ويهتف بهتاف

---

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.
(٢) العوالى: الرماح.
(٣) أثأى العدا: أكثر من القتل فيهم والجراحات.. مرءوبا: ملتئما. رأب الثأى: إصلاح الصدع والفتق.
(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق الكريم.

المسلمين فى كل أذان: «حىَّ على» استفتاحها أى أقدم أقدم وياخيلِ الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتئما بها، وهو الذى يُرْجَى به لَأْمُ ما انفتق، وإنه لمعوّد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يمليها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلا:

لا تَلْهُ فى وجودك الأوَّلِ عن وُجُودِك الثانى ونَهْنِهْ مَنْ لَهَا[1]

ويقول إن للنفس وجهين: وجها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجها يشدُّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاقتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله فى فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصورته وما بذل فيها من جهد فى تخير الألفاظ والمعانى، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تخلب القارئ بروعتها البيانية.

---

(١) نهنه: ازجر.